نظرات

في أعماق النفس الإنسانية

تأليف

إبراهيم الدسيجي

نَظَرَاتٌ

فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ

(ونفسٍ ومَا سَوَّاهَا)

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وأحبابه والمسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا يليق بجميل فضله وعميم جوده وسابغ إحسانه، والصلاة والسلام والبركة على خيرته من خلقه ومصطفاه من عباده وخليله وكليمه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، أما بعد: فهذه فصول في تأمُّلاتٍ ونَظَرَاتٌ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ، وهي خلق عجيب مدهش بديع، سبحان من خلقها وبرأها وأبدعها، (ونفسٍ ومَا سَوَّاهَا . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها). والنفس قريبة المتناول لمن تأمّلها، واعلم أخي الحبيب أن نفسك ليست عدوة لك؛ فهي أنت وأنت هي، ولكنها غرائز وأفكار وتصورات وإرادات حقيقة بأن تُخطم بالشريعة بحكمة ورحمة ورفق وحزم حتى تصل شاطئ السعادة والفلاح في رحاب عليين بفضل الله وكرمه ورحمته وإحسانه.

وجملةُ هذا الكتاب صابَّةٌ في مسارين:

الأول: توضيح ما تيسر من التوازنات العقلية المعرفية الروحية. **والثاني:** إضاءات لبعض خبايا زوايا الإدراك لتكون البصيرة على بصيرة. وقد سئل أبو الوليد الباجي المالكي: هل قرأت أدب النّفس لأفلاطُون!؟ فقال: "إنّما قرأت أدب النَّفس لمحمَّد بن عبداللَّه ﷺ" (١). وهذا هو التوفيق حقًّا، والتسديد صدقًا، فالهدى هدى الله تعالى. سائلاً ربِّي الأجلَّ لي ولك التسديدَ والتوفيق والعون والنفع والقبول، حامدًا له شاكرًا، مصليًا على خيرته من خليقته محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرَّحْمَن الدُّمَيجي

١٤٣٦/٤/٦

aldumaiji@gmail.com

....

(١) العواصِم من القواصم ص: (١١٩)

تعلّمْ أن تُحِبَّ النّاس

الحمد لله وبعد: فما هو الشيء الذي يسعى لتحصيله كل الناس ويبذلون لأجله أغلى ما عندهم ثم في النهاية لا يحصّله على التمام إلا الأقلون؟

إنه السعادة, وهي ذلك المزيج الشعوري الجميل بإدراك المُنى, وتعظم السعادة حينما تكون الأمنية عظيمة وإدراكها تامًّا, فكلما قويت الرغبة ازدادت نشوة الحبور عند إدراكها, وتأمل أعظم نعيم الجنة بلذة النظر إلى وجه الجميل سبحانه! فاللهم نسألك من فضلك العظيم.

في هذه الدنيا لا يخرج الإنسان عن ثلاثة أحوال – مع تعاقبها عليه – فإما أن يزيد زمان سعادته على عدمها, أو العكس, أو استواء الطرفين. وكل إنسان يسعى لتكميل نقص أسبابه لتحصيل رغيبته العاجلة أو الآجلة. وهل أنعم من الراحة والعافية!

تريد راحة نفسك إذن فلا تُعلّقها بما لا بد لها من فراقه من حطام الفانية أو سُكّانها. فعلى قدر زهد قلبك تفوز براحة روحك, فنعيم الدنيا مُنغَّصٌ مهما استدارت بك ألطافه, وأكدارها زائلة مهما لوّعتك خطوبها, بل لا شيء لأجلها يستحق الكراهية.

تريد نعيمًا لا كدَّ فيه ولا كدر معه, ابشر به فهو في متناولك, إنه حب الخير للناس. وإنه ليسير على من يسره الله عليه, وإن الموفق المحظوظ هو من أكرمه الله به. فهو جَنَّةٌ قبل الجَنَّةِ, وراحةٌ قبل الراحة, وسرورٌ يستتبع سرور. أَوَلا يكفيك يا صاحبي: "حتى يحب لأخيه"؟ وإن لنَيْلِهِ طرائق وأسبابًا منها عشر أُراها مفيدة:

١- أحبب نفسك أولًا:

فتعلّم أن تحب نفسك وأنّى لك ذلك إلا إن أحسنت التعرّف إليها فهي بعيدة على قربها وعميقة على قرب تناولها, وصعبة على يسرها. تذكر عيوبك المستورة

والمنظورة, واكشف نوازع نفسك, وكن صريحًا في تفتيشها, واحذر خداعها وتلونها, فعقلك قد يخدعك من حيث لا تشعر.

جِماعُ ذلك أن تكون كما أنت بلا تكلّف ولا تصنّع, أرسل نفسك على سجيتها, فكن بطبيعتك ولا تدّعي لنفسك زكاءً أصفى, ولا ذكاءً أحدّ, ولا علمًا أغزر, ولا مالًا أكثر, ولا مقامًا ليس لك.

فأول درجةٍ في سلم الراحة أن تكشف نفسك كما هي, فلا تُعليها ولا تُدنيها إلا تواضعًا, وليس الإزراء بأشدّ من الاستعلاء, ومن تواضع لله رفعه. وليس معنى ذلك أن تسوطها بسياط الكبت والهضم لما لها فيه سبب فلاح ولطيفةُ فرحٍ, والقصدَ القصدَ تبلغوا.

٢- الحياة أقصر من إضاعتها في الأحقاد والكراهية:

لو رحلت لنزهة قصيرة مع من تحب وقد تعبت في إعدادها فهل ستسمح بسرقة سويعات من وقتك الباهي وزمنك الزاهي في خصومات تكدّر صفو سعادتك في تلك السياحة؟ قطعًا لن تفعل وسيقول حالك: في باقي الزمان متسع للنكد فَلِمَ العجلة؟! فأقول لك يا محب: فالدنيا بأسرها كذلك لمن يحسن حساب الزمن, وما هي إلا سنوات وترحل عنها بعمرك الذي اضمحل في تضاعيف أحداثها, وتنسى كما نُسي سابقوك, فابتهج واسعَدْ وأَسْعِدْ, لا تحبس نفسك في تراث حقدك, وانطلق ففي الحياة متّسع, انتزع رمح الحقد القاتل من قلبك, فلا تسمح لكدر الحقد إن وصل قلبك أن يطيل مكثه أكثر من سحابة قيض نجديّة! وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا.

٣- استخرج أحسن ما عند الناس:

وستراها أكثر مما تطيق إحصاءها, فما من البشر أحدٌ إلا وهو يمتاز بمحامد, فانظر لها نظر المحب الحامد, لا الغيور الحسود, فالروح الجميلة يطربها جمال الأخلاق,

وتهزُّها مكارم الشّيم حيثما كانت, وتأمّل إيجابيات خصمك وحسناته مهما كشف عن وجهه برقع الحياء, وحاول – بكرمك – أن ترفع محامده حتى تفوق وتعلو ما بلغك عنه أو منه من سوء, وانظر لنصف الكأس الممتلئ فيه. ولقد تأملت في الناس فرأيت أن الحسد يستتر خلف كثير مما يسمّونه أسباب كراهية, فجُز ناديهم بطهارة قلبك وبياض فؤادك, وإن البرَّ يا صاحبي أسلافٌ.

٤- صارح من بلغتك إساءته وعاتبه, ولا تقبل فيه قالَةً ما لم تخرج منه بعذر وإعذار:

وكم من لفظةٍ خاطئة خرجتْ فلفظَتْهَا نفوسُ الأخيار فأماتوها في مهدها, ثم شكرهم في قابل الأيام من رَمَوها, وكم كلمةً بريئة من قلب مؤمن غافل تلقّفتها حمّالة حطب النميمة وأركبتها قلائص الغيبة والبهتان ففرقت بين المحبين فطارت بهم إذ لم يتبيّنوا, وأثارت نقع الأحقاد بين المؤمنين بعد أن غاب حليمهم وحضر طائشهم وعجولهم, ومن قرأ التاريخ شيّبتْ قذالَهُ عجائِبُهُ!

٥- تأمل خصمك بعد رحيله عن دنياك أو رحيلك:

اقفز بمخيلتك وارحمهم بعد أن ترحم نفسك, تذكر رحيلك عنهم وتركهم خلفك في ذي الفانية أو رحيلهم لمصيرهم وما فيه من أهوال, نعم يا صاحبي فقد يمتن الله عليك ببصيرة وعلم ويقين بالآخرة وأهوالها, فاجعلها مرآة تعكس تعاملك مع الناس أحبابًا وأخصامًا. واعرف قدر الدنيا.

وما أدنى هِمَّةَ من ينازع على جناح البعوضة! أولم يكفك أن تعلم أن عاجل نصرك هو علمك بخذلان من رام ظُلمَك من جهة ضلاله أولًا ثم ببغيهِ آخرًا, فتذكرها دومًا ففيها للمظلومين سلوىً وعزاء.

٦- تأمل ضعفهم وقلّتهم وفقرهم وحاجتهم:

ولئن تدثروا بالغرور, وتلفعوا بالستور, فلقد علمتَ أنهم مثلك ضعفاء مهما استقووا, وفقراء مهما استغنوا, وقِلّةٌ مهما تكاثروا, ومحتاجون مهما صمدوا بدعواهم! فارحم وأشفق, واسمُ وارتفع فالقاع يا هذا مزدحم.

٧- تذكر حبهم لله وعبادتهم له ومودّتهم لصغارهم وأهلهم.

فهناك جامع للإنسانية, ومهما ابتعد الإنسان عنك بفعله أو تصوّره أو عدائه فيبقى جانب ولو قليل يستحق منك نظرة وتأمّلاً, فتذكر مشتركاتك معهم مهما دقّت, فمن كان منهم حنيفٌ فأحببه لإيمانه, فهو يعبد الإله الحق الذي تعبده, ويتطهر له ويسلم وجهه له, ومن كان غير ذلك فأشفق عليه وارحمه من شقوته, واسع في هدايته ورشده.

حتى البهائم والنبات والجمادات تلك المخلوقات المُسبّحة بحمد ربك يتلمّسْنَ من فؤادك المفعم بالطهر خفقة مودّة ودفقة اعتراف بجمالهن المكنون والمنظور, وما أجمل قلبك إذ يعجُّ بالعنادلِ المغرّدة, ولن تخسر يا صاحبي شيئًا بهذا الحب الجميل.

٨- ادع لهم واستغفر لهم بظهر الغيب:

تذكّر فضل العفو والصفح والمسامحة, ولا تحسبنّك بالعفو تخسر, كلاّ وربّي! ليكن حسن الظن رائدك, وتلمس جوانب العتبى والعذر لمن آلمَ ذاكرتَك أو جَرَحَ فؤادَك أو اكفهرت لأجله روحُك. سِرْ رويدًا في فلاة الطهر وأخمد جمر الانتقام بصب ماء العفو, ولا تلتفت لأصوات الغضب بين جوانحك وأغلق مراجلها بهتافك لها: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" فهلاّ تذوّقتَ ليلةً أن تدعو صادقًا لعدوّك في سجودك؟! كن من الثلة السابقة بحمل أثقال الأخلاق, ولكلِّ سلعةٍ ثمنها "ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين"

٩- تأمل سيرة خيرة خلق الله, ثم عظماء النبلاء ممن آتاهم الله رشدهم:

ومن تأمل سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثباته على حبه الخير مع اختلاف الأحوال والأهوال عليه رجع بيقين نبوّته وصدق رسالته.

١٠- تذكّر أنك الكاسب الرابح والغانم الفالح:

فكم ستشتري سعادتك وانشراحك بمحبتك ورحابة صدرك وسعة عقلك. أقول: تذوق ذلك واعلم انه بلسمك الدائم, ألا ما أجمله وأبهاه وألذّهُ وأصفاه!

تلك عشرة كاملة, وفيها لمبتغ الخير مغنىً ولخاطب السعادة مقنع.

ومضة: ليس كل صمت حكمة, فبعضه عيٌّ وعجز (١).

....

صحيفة الاقتصادية ٧ رمضان **١٤٣٥**

التوسط بين الإقدام والإحجام

تبلغ الشجاعة ورغبة ما عند الله ببعض أهل العلم والصلاح حدّ إرادة الاستشهاد كما المقاتلين في سبيل الله، حتى يرون بعض المهمات الشرعية كصيانة العامة من محن لا طاقة لهم بها وكحفظ النفس من التلف أنها مجرد وساوس شيطان.

بينما تحمل ركائب الجبن ونجائب إيثار العاجلة آخرين على تمييع ثوابت شرعية كبرى كأولوية حفظ الأمة عن فتنة الدين وتأويل النصوص وعسف النظر لمآلات الأحوال الدينية حتى يلقونها خلفهم ظهريًّا بحالهم ومقالهم.

والحق وسط بين باطلين؛ فشجاعة بلا حكمة خطأ يقابل العلم بلا عمل.

والهدى هو إيثار الآخرة بأرفق طريق وأصدقه وأوضحه، سواء بتلف الأجساد أو حفظها. والموفق من هداه الله سبيله.

التقوى بين الغلوّ والجفاء

الحمد لله وحده, والصلاة والسلام على من لا نبي بعده, وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان, أما بعد:

فمن سنن الله تعالى في خليقته أن نوّع المدارك, وفضّل في المِنح, ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم, وبثّهم في هذه الدار امتحانًا وابتلاءً. كلٌّ منهم يحرث أيامه بأعماله, ويستبق أجله مع أنفاسه حتى إذا بلغ المدى الأخير عادت وديعة الروح لصاحبها ورجعت لخالقها.. حتى إذا أذن الله للحساب؛ أقام الأشهاد, وجمع الأولين والآخرين.. حينها: "يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذٍ لله" "كل نفس بما كسبت رهينة" "يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية"

حينها يكون الافتراق العظيم في المصير على قدر الافتراق اليوم في التديّن "ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فؤلئك في العذاب محضرون"

فبما أن الأمر بهذا الخطر فقد وجب على كل ناصح لنفسه أن يراجع مسيرته, ويحاسب نفسه قبل الفوات, كي يستعتب في دار المهلة ويؤوب قبل أن لا تحين مناص.

ومن فروع تلك المحاسبة: أن لا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتّباع, فرُكنا قبول العمل الإخلاص والاتّباع, ولا يكفي شرط عن مُكَمّله, فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له, ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الائتساء بمن لَهَجَ له بالشهادة

بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته, وهو القائل _ بأبي هو وأمي ونفسي _ فيما رواه الشيخان: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ" وكفى به عن الإحداث زاجرًا.

فقل لمن لم يخلص: لا تتعب! وقل لمن لم يتّبع لا تتعب! "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا"

وشرْعُ الإسلام وسط بين الشرائع, قد جمع الله فيه كل كمالاتها وجعله خاتمًا لها ناسخًا, "ومن يبتغ غير الإسلام فلن يقبل منه" وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وسط بين الأمم, عدولًا خيارًا شهداء على الناس, "وكذلك جعلناكم أمة وسطًا"

وما من أمر لله إلا وللنفس فيه إفراط أو تفريط, ومن رحمة الله أن جعل منار الدين واضحًا جليًّا, وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم محفوظة نقيّة "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" فمن رام الفلاح فليبدأ من هنا. لا غلو ولا جفاء, فابعث نفسك على العمل واجتهد ولا تقصّر, ثم قف حيث وقف القوم, فلا خير في التقصير ولا خير في الغلو.

٦/ ٥/ ١٤٣٥

زهد وإحسان لا تصوّف وخرافة

أن تصل مرتبة الإحسان التي أعلاها وأشهرها رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه, بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك" عليك بأمرين:

إحسان المعتقد, وإحسان المتابعة.

"فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا" صلاحًا بحسن الاتّباع وهجر الابتداع, وإخلاصًا بالبراءة من كل ما يشوب صفاء التوحيد من لوثات التشريك.

فإحسان السلوك يبدأ من هنا, وبهذا تتحقق لك الشهادتان قولًا وعملاً, فإن كنت كذلك فافرح بفضل الله تعالى, واحمده واشكره والهج بتقديسه وذكره, واسأله المزيد من فضله, والتثبيت على صراطه, وإن كنت على غير هذه الجادة _ إما دَخَلاً في معتقد, أو ابتداعًا في الاتّباع _ فلا تتعب نفسك, فعلى قدر الانحراف تكون المؤاخذه بعد إقامة حجة الله تعالى على نفسك.

فيا صاحبي اضرع إلى ربك, وانطرح بين يديه, وانكسر في سجودك مبتهلاً: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل, عالم الغيب والشهادة, أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون, اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

حرفان رقيقان لابن حزم الأندلسي

ثلاثة من علماء الإسلام, وهبهم الله تعالى حدّة نباهة, وفرط ذكاء, وسيولة ذهن ليست لغيرهم, واستيعاب لنهايات فنونٍ يحتاج واحدها لعمر ثلاثة من لداتهم لاستيعاب ما استوعبه واحدهم في ذلك الفن! فهم من أذكياء العالم بلا نزاع, هم أبو محمد ابن حزم, وأبو حامد الغزالي, وأبو العباس ابن تيمية.

فإذا أبحر المرء راكبًا متنَ كتابٍ أو رسالةٍ خطَّها يراعُ أحدهم فإنه لا يملك نفسه أن تقول: سبحان موزّع المواهب وواهب الألطاف, ويكأنَّ أحدهم لا يحسن إلا ذلك الفن الذي كتب فيه لعميق غوصه في لُجّته.. وإن كان التوفيق للصواب والهداية للحق لم تكن بينهم بالتساوي, فقد بزّهم أحمد بن تيمية بموافقته الحق في المعتقد وتوفيقه للصواب في الاتّباع ما ليس لصاحبيه "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"

ولست بصدد المقارنة, إنّما رأيته مدخلاَ صالحًا للوقوف على ساحل ذلك العَلَم الشامخ, أعني به ابن حزم القرطبي الأندلسي رحمه الله. فهذا الرجل نادرة فاذّة, وله صولات في العلوم وجولات في الفهوم رقمت بعضها يمينُه في الكواغدِ والقراطيس. وهذا العملاق _كغيره_ له وعليه, فهو يغترف من بحره الذي لا تكدّره الدلاء, ولو وُفِّقَ لعالم سنّةٍ يأخذ بيده بلطف ويوقفه على منهاج السلف في المعتقد وبخاصة في صفات الله جلّ وتقدّس, وفي التفقّه في العلميات والعمليات لكان له شأن آخر, ولسلم من شوائب المحدثات, وزَغَلِ التناقضات, ولَدَدِ شناعة الخصومات, ولكن للحكيم الخبير سبحانه حِكَمٌ تتضاءل عن معرفتها العقول مهما أُعطيت من سعة وحدّة! "لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون"

موضوع وقفتنا مع رسالة نادرة لهذا الفحل المهيب.. لا, بل الأديب الرقيق, صاحب طوق الحمامة الذي كان سبقًا لرواد الرومانسية الغربية, إذ سبقهم في تفصيل حقيقة العشق ولواعج الشوق وأحواله, بأسلوب أدبي رائق متانة وجزالة وجودة سبك, مع سلاسة ورونق وسهولة مأخذ, وهذه الثنائية لا تتأتّى لكل أحد, خاصة من تحفّظوا عن ذيّاك السبيل اللطيف, بذريعة إجلال الفقه!

وأكثرُ من ارتقى قُلَلَ الشاعرية, أو أبحر في مسالك العشاق, قد مرّت به مواقف حبٍّ عاصفة, جارفة فؤاده لمجهول غيبٍ, وجموح خيال, غالبًا في ميعةِ صبا.. تنتهي بأَخَرِةٍ إلى مأساةٍ يكون قتيلُها فؤادٌ بمُديةِ الجَوى الذبيح!

وكذلك كان صاحبنا أبو محمد, فقد تزوّج معشوقته "نعما" في سن مبكرة، وكانت كما يقول: أمنيةَ المتمنّي, وغايةَ الحسن خَلْقًا وخُلُقًا, وكان هو أبا عذرها! فماتت بين يديه في ريعان الهوى وفتوّة الصبابة! لذا فقد فقدها فاجعًا لم تُطقه نفسه المرهفة الحالمة التي طُردَتْ من تلك الجنة بلا سبق إنذار!

فلبث بعدها سبعة أشهر دون أن يغتسل من الكآبة والإحباط والبكاء، وع أنه كان جامد الدمع بسبب كثرة أكلِه الكندر لمداواة خفقان قلبه، ولم ينس ذلك العاشق الوفي ذكراها حتى لحقها.

صاحبنا علاّمةٌ في مدرسة التحليل النفسي _العفيف_ بل قد يكون رائده المرتّب له بإطلاق, وإن كان أقدم كتاب وصلنا هو حوار المأدبة لأفلاطون, وفيه مادة صالحة لتحليل الحب, ولكن ليست على نسق ولا ترتيب بل ولا عمق طوق الحمامة لأبي محمد. وقد تكلم المسعودي قبله في المروج حول شيء من ذلك كذلك ما جاء في الزهرة, لكن ليس على نمط ذلك اللوذعي الأحوذي.

اشتهر ابن حزم بقدرته على الغوص في أعماق الضمير الباطن, وردّ الغرائز الكامنة لأصولها, وبخاصة ما يتعلّق بالنساء! ومن أسباب ذلك غيرةٌ شديدةٌ طُبع عليها, مع عيشه في صباه في مجمع نساء علّمنه ووثقن به, قال: فلم أزل باحثاً عن أخبارهن,

كاشفاً عن أسرارهن، وكن قد أَنِسْنَ منّي بكتمانٍ، فكُنَّ يطلعنني على غوامض أمورهن. ولولا أن أكون منبّهًا على عوارت يُستعاذ بالله منها لأوردت من تنبّههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب! وإني لأعرف هذا وأتيقّنه، ومع هذا يعلم الله – وكفى به عليماً – أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجزة، وإني أقسم بالله أجل الأقسام: أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكور فيما مضى، والمستعصم فيما بقي.

الحرف الأول من تحليله النافذ؛ قال: والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد, لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحَرَّك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء!

وشيء أصفه لك تراه عيانًا: وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحسّ أن رجلاً يراها أو يسمع حسّها؛ إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غُنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتَ التَهمّم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاء به! والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء! وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل, واجتياز الرجل بالمرأة, فهذا أشهر من الشمس في كل مكان, والله عز وجل يقول: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم" وقال تقدست أسماؤه: "ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن" فلولا علمُ الله عز وجل بدقّة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب، ولطف كيدهن في التحيّل لاستجلاب الهوى؛ لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حدُّ التعرّض فكيف بما دونه؟!

الحرف الثاني يكشف فيه معنًى شديدَ الغرابة, ولعلّه يكشف علّة أعيتْ خبراء النفس في اجتماع النُّفرةِ والحبّ الشديدين في نفسٍ واحدة لنفس أخرى! قال رحمه الله:

والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطتْ في غاياتِ تَضَادِّهَا، ووقفتْ في انتهاء حدود اختلافها؛ تشابهت! قدرةٌ من الله عز وجل تضل فيها الأوهام. فهذا الثلج إذا أُدمن حبسه في اليد فَعَل فِعْل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والغمّ إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتدّ أسال الدمع من العينين. وهذا في العالم كثير، فنجد المحبَّيْن إذا تكافَيا في المحبة, وتأكدت بينهما تأكّداً شديداً؛ كَثُرَ تهاجرهما بغير معنى! وتضادّهما في القول تعمُّدًا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبّع كل منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأوّلها على غير معناها! كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومحاربة التشاجر؛ سرعةُ الرضى، فإنك بينما ترى المحبَّين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تُقَدِّرُه يصلح عند الساكنِ النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبداً، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة! هكذا في الوقت الواحد مرارًا!

وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجنّك شكّ ولا يدخلنك ريب البتة ولا تتمار في أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا، واقطع فيه قطْعَ من لا يصرفه عنه صارف. ودُونَكَهَا تجربة صحيحة وخبرة صادقة. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودة وائتلافٍ صحيح، وقد رأيته كثيراً.

فاصلة: يُزيّنون الخنا بقولهم: فلان قلبه أخضر, أو خَضَر! قل: فلان في قلبه مرض, أو مفتون, ولا تقل: قلبه خَضَر! وفي التنزيل: "فيطمع الذي في قلبه مرض" أي شهوة بلا إيمان رادع. وكم من خطيئة زُيّن لفظُها عن قُبح معناها! (١)

....

صحيفة الاقتصادية **١٤/ ١١/ ١٤٣٤**

الرواحل.. والأرواح!

الحمد لله, وبعد:

فذات شتاءٍ حائليٍّ, وقد انتصف موسم الوسميّ العَذِيّ, الشائق لأهل ارتياض البادية, وأزاهيرها النادية, خاصّة إن أمَدّها الرحمن بغيثٍ هتون, مشيتُ وصاحبي الهُوينى, بِيَدِ كلّ منّا عصا تنشطه في مشي الفيافي, نتطارح حديث المرابع, ونتشاكل أسمار اللطائف, وقد لا حت لنا على مَدِّ البصر أشباح مُدْبِرةٌ, لرجال ونساء وأطفال, تتزايلُ ظِلاَلُهُم الطويلة على امتداد التُّربِ المرمريّ, فقلت متخيِّلاً حقائهم الآن وبعد مئة عام أو تزيد:

يا صاحبي ألا ترى أنّ حقيقة الإنسان بروحه لا بجسده الذي هو كالراحلة لها, وإن كان له عليها تأثير ضئيل لما بينهما من المشاكلة طيبًا وخبثًا, سعادة وشقاءً, وإلا فالخطاب أصالة موجَّهٌ للروح أما الجسد فتابعٌ, أرأيتَكَ سِنَّك وضرسك الذي اقتلعتَ, وظُفرك الذي قلّمتَ, وشعرك الذي حلقت, بل العضو إن قُطِعَ؛ هل تُحِسّ بشيء من ذلك؟ كلاّ!

وعلى ذلك فما دامت الراحلة صالحة للركوب والارتحال فالروُّح متعلّقة بها, فإن طرأ عليها فساد وموت؛ رَحَلَتِ الروحُ لباريها, على ما فيها من حاجة للراحلة التي تنتظر مبعثها ونشرها! والله المستعان.

وقد ورد أن ابن عمر قال لأسماء معزيّاً أمام جثة ابن الزبير ولمّا تُقبر رضي الله عنهم جميعًا: عليك بتقوى الله والصبر, فان هذه الجثث ليست بشيء, وإنما الأرواح عند الله, فقالت: وما يمنعني من الصبر, وقد أُهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بني إسرائيل!

نعم, إن مأزق الجهل بمكانةِ الروح وقدْرِها في الخليقةِ هو من أكبرِ أسباب الحيرة أثناء بحث العالمين الدؤوب, عن مصدر سعادة وكُنْهَ سرور لا يكاد الجسدُ يُحسُّ من ذلك إلا أقل مقدار! والحقيقة بين أعينهم لو كانوا يعلمون, بل إنها لتضجّ صراخًا من أجوافهم صُبحَ مَساء, دون أن يسمعوا ولو بِرِكْزٍ لصوتها!

لذا فلا عجب أن ينكص أغنى الناس وأترفهم في ملاذ الجسد على عقبيه باكيًا شاردًا حزينًا كئيبًا, يتكفّفُ الناس سعادة لم يجدها! يريد إشباع جَوْعَةِ روحه التي لم يتبين كنهها, ويروم إرواء عطش نفسه التي لم يتصالح معها, فما هي إلا مدّة تطول أو تقصر إلا ونراه قد انكفأ على سؤاله الحقيقي "من أين؟ وإلى أين؟" فأرداه حسيرًا يظنّ أنه متشحِّطٌ في دم موته, ولم يعلم أنه يتشرّب مزيد علقمٍ لنَفَقِهِ الذي أبى النورُ أن يضيء أرجاءَه!

اعتبرْ تِيكَ الأمور بما خطّه الفيلسوف الإنجليزي _مُعَظَّمُ القومِ!_ براتراند رسل حين هتف قلمُه بكل حيرة قائلاً: "ماذا نقول عن الإنسان؟! أهو ذرّة من الغبار تزحفُ بلا حولٍ ولا قوّة على كوكب صغير ضئيل الشأن كما يراه الفلكيون؟! أم أن الإنسان حفنةٌ من الموادّ الكيميائية رُكّبت بطريقة بارعة كما يراه الكيميائيون؟! وأخيرًا: فهل الإنسان هو كما يبدو في نظر هاملت رفيع العقل لا نهاية لملكاته؟! أم أنه قد يكون هذا كلّه في آن معًا؟!"

والجواب: أن الإنسان هو من وراء ما ذكر, فهو كائن كريم, خلق الله أصله بيده, ونفخ فيه من روحه, ثم كلّفه وكلّف ذريّته بحمل أمانة العبادة, وأمدّه بألطافه, ووعده الرضى والجنة إن أطاع, وأوعده السخط والعذاب إن عصى.. ولكن هذا الجواب لا يرتفع إليه أهل الكثافة الجثمانيّة _لأنهم يعدّونها نزولًا ورجوعًا وتخلّفًا وخرافة! فلجوابهم إذن بمنطقهم حديث لاحقٌ إن شاء الله.

لقد ضلّ من حصر الإنسان في هذا الجسد الفاني عن قريب, وغفل عن المُكَوّن الرئيس له "الرّوح" وتجاهل رَغَباتها ورَهَباتها, وضروراتها وحاجاتها وكمالاتها.

فالإنسان مخلوق من جثمانٍ طيني أرضي, بمثابة الراحلة والمطيّة, ونفخةٍ علويةٍ سماويةٍ, تلك هي الروح العليّة! فإن زكّى المرء روحه سبحت في ما خُلقت له من سعادة وعبادة, وإن تخلّفت بجذب الطين أشبهت أروح الشياطين, فشاكلتها حقيقة بعدما شابهتها معنًى وعملاً. وصدق البستيُّ إذ قال:

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتهِ أتطلبَ الربحَ في ما فيه خُسْرانُ

أقبلْ على النفسِ فاسْتَكْمِلْ فضائلها فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إِنسانُ

وأُراهُ قد أراد بالنفس الروح, ذلك أن القسمة لمكوّن الإنسان _في ظنّي_ ثنائية, لا ثلاثية, فهو روحٌ وجسدٌ لا غيرُ, أما النفس _وتسمّى الناطقة_ فهي مجموع الروح والجسد, لكنّها تنزِعُ للروحِ أكثر لعلاقتها بالإرادات والمشاعر, وهي ما تسمّى بالنفسانيات, أما الآلام واللذائذ الجسدية فهي أعرض جسم.

وهذه النفس قد تمرّ بمراحل فتكون حينًا أمّارة, وحينًا لوّامة, فإن رحمها ربُّها وباريها جعلها مطمئنة. وقلتُ مُنشِدًا زبدة تلك الهواجس والخواطر والفِكَرِ:

أَقْبَلِتِ الرَّوَاحِل

أَدْبِرِتِ الرَّوَاحِل

تَكَابَرَتْ فِي العَيْن

تَكَاثَرَتْ لِلْبَيْن

تَقَافَزَتْ أَشْبَاحُهَا

تَنَاثَرَتْ أَشْلاَؤُهَا

مَا تِلْكَ سِوَى أَجْسَادٍ

تَحْمِلُ أَرْوَاحَ الْبَشَر!

٣٠/ ٦/ ١٤٣٤

لكل مهموم

تموت النفوس بأوصابها　ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي　أذاها إلى غير أحبابها

لكل مهموم أو حزين أو مريض أو محطم الفؤاد أو متآكل الروح من فشله أو عثرته أو إحباطه.. ثمّ رب يراك.. وإله يسمع نجواك.. ويفرح بضراعتك.. ويقرّبك إذا تخلّى عنك الأقربون.

ويذكُرك إن نسيك المحبون..

ويرحمُك إذ قسا عليك الألدّون..

ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك.. ويشرح صدرك وييسر أمرك..

فأين أين أين عن طرق بابه..

واللياذِ بعظيم جنابه..

والالتذاذِ بجميل خطابه..

والانطراح في عبوديته ودعائه.

اشك نفسكَ والناسَ إليه.. واحذر من أن تشكوه إليهم..

كيف تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو..؟!

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا　تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ

وعليك بجادّة الأنبياء.. "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله"

والبث هو الحزن الذي لا يطاق. والله المستعان.

دع ما لا يعنيك

من انشغل بعيوب نفسه وتحصيل مصالحها اشتغل عن عيب غيره وتتبع أموره.

قال عمرو بن قيس الملائي: مرّ رجل بلقمان والناس عنده فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني.

وقال مورق العجلي: أمرٌ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه أبدًا، قالوا: وما هو؟ قال: الكفّ عما لا يعنيني.

وعن الحسن قال: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلانًا من الله عز وجل.

وقال سهل بن عبد الله التستري: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق.

وقال معروف: كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل.

واحفظ لسانك عما لا يعنيك.. فقد توفي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل: أبشر بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو لا تدري، فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا يغنيه" أخرجه الترمذي

يا بَعْضي دَعْ بَعْضًا

الحمد لله, وبعد: فأصل هذا المثل السائر أن زرارة بنِ عُدَس زَوَّج ابنتَه من سُوَيد ابن ربيعة، فكان له منها تِسْعَةُ بنين، وأنّ سُويداً قَتل أخًا صغيراً لعمرو بن هِنْد – الملك, قتيل عمرو بن كلثوم – وهَرب سويد ولم يَقْدِر عليه ابن هند، فأرسل إلى زرارة: إنِ ائتني بوَلده من ابنتك، فجاء بهم، فأمر عمرو بقَتْلهم، فتعلّقوا بجدّهم زُرارة. فصاح باكيًا: يا بَعْضي دَعْ بَعْضاً، فذهبت مثلاً.. تلك قصة المثل الأولى, فما قصته الثانية؟!

لا شك أن الجسد الإسلامي الواحد يشكو ما آل إليه حال أعضائه وأطرافه من التنازع والتخالف والتناحر بشكل مروّع – ولهذا حديث آخر إن شاء الله – وحديثي اليوم ليس من ذلك القبيل، بل هو رنين صدى آخر!

فقصة المثل الحالية للمتلمّس اللمّاح هي ما نشاهده ونسمعه من تندّر مكرور وتنابز مؤلم بين أبنائنا وبناتنا, وبخاصة بعد سيادة وسائل التواصل الاجتماعي التي أضفت على حياة الناس لونًا جديدًا من المتعة الذهنية والبصرية والسمعية, وهذا سوى المنافع العلمية والدعوية والإغاثية, وكذا ما يجري مع ركام سيلها من سموم وبواقع فكرية وأخلاقية..

ومقصودي هنا هو ما يُتداول من طُرفٍ ونكات ومواقف تخيّلية تنبئ عن واقع يحاكي بعض جيراننا الذين اشتهروا في العقدين الماضيين بحسّ الدعابة وعفوية النكتة، فسبقهم شبابنا في هذا المضمار الذي لا يدركُ سابقُه مجد ولا فخار سوى بيان الأسى والإحباط والفراغ والتيه الذي تزمّله وتدثّره غير قليل من شبابنا وفتياتنا! وحبيبنا صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه أحمد وأبو داود بسند حسن: "ويل للذي يحدِّثُ فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له"

لقد ازدادت حدّة التعاليق اللاّمِزَةُ بيننا بشكل مسفٍّ، وقد مالت الكفّة للذكور حتى كادت رمانة الميزان أن تندقّ, - لا لضعف أخيلتهن, ولكن لخفرهن وحيائهن - لولا ردود قولٍ منهن تنزل عليهم كـ" الصواقع " الملتهبة والشهب المحرقة.. وما هذا منهن سوى ردّات فعلٍ واستجابة انفعال, - وإن كان غير مضطرد - فهن لا يبتدئن في الغالب ولكن أحيانا يغالين في الانتقام, ومردّ كل ذا نقص عقل الطرفين!

أحبتي: الألقاب المتنابَزُ بها كثيرة ومتغيرة ومتجددة, لكنها لا تذهب بعيدًا حتى يعود الوصفان جذعان: فيبقى وصف الرجال للون بعض أعضائهن وبخاصة موضع السجود بالسواد (سواد الركب!) ونعتهن لهم بلباسهم الداخلي هزءًا (أبو فنيلة وسروال!) فهذا هو الثابت والباقي متغير ويدور عليه, وربما زحفت عليه بعض الألقاب الرنانة الجديدة التي تستحلب دمع الضحك عند طرف ودمع الحزن لدى آخر.. خاصة إن كان الكسر لدى ربّات القوارير الهشّة! وإن الأذى عليهن ليصل الذروة حال مقارنتهن الانتقائية مع نساء بلد آخر.

يختل بعضهم الحجة بقوله: ننقد لنظهر الخلل فيسهل علاجه بعد الإحساس به, والجواب: إن كثيرًا من النقد يعزز الداء أكثر مما يرفعه, وبخاصة بمعيّة السخرية والهزء, ويكفينا عموم زجر ربنا: "ولا تنابزوا بالألقاب"

والمخجل المؤسف أن بعضهم يسفّ الوصف بأشياء خاصة جدّا, بل ربما نزل بعضهم للعورات! وفي الصحيحين: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت"

إن بعض تلك النكات لإسفافها واتضاعها لدركات النزول الأخلاقي، وحقنها بمادة حقد سوداء؛ ليخيل إليك أن الأصابع التي كتبتها لا تنتمي لهذا البلد ولا ساكنيه, إنما هي كتلة حقد ذات أصابع! وما هي منهم وإن كانت منهم, بل حقيق بها ضربُ غرائب النُّوق, وإبعادُها خلفَ العَيّوق!

لستُ ضد المرح والطرائف والانشراح وتلطيف الوقت وإحماضه، لكن قد جعل الله لكلّ شيء قدرًا.

وصيتي للطرفين بحفظ الوقت عن الغفلة، وحفظ القلم فهو أحد اللسانين، وغدًا إعتاق من غِلّ الكلِم أو إيباق!

وأهمس في آذان أحبتي: إن كثيرًا مما يُتداول، وبخاصة ما كان فيه خفضٌ وإغماضٌ بسبب خلق الله فلا يخلو من تنكّرٍ للأصل, وضعف وفاء للمجتمع الذي رعاك ورباك, وحنّ عليك, وحينما ناديته.. لبّاك. وكما قالت العامة: الذي ليس فيه خير لأهل بلده لا خير فيه.

وتلك الطُّرفة التي قذفتها للناس ليس لك من مغنمها شيء, فكل ما يتداول يستحي واضعه من نشره باسمه! ولكن الذي يبقى هو المغرم والوزر. وإن لم يكن الناس يدرون من ابتدأ تيك "النكتة" فالعليم الخبير لا تخفى عليه خافية! وفي مسلم: "ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها, ووزر من عمل بها من بعده, من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"

إذن فالقضية أوزار متتابعة, يأخذ بعضها برقاب بعض, في سلسلة سنين وعقود وقرون, وقد يصل الوزر لحمل ذنوب الملايين من الخاطئين!

يقول أحدهم: أنا لا أخصّ أحدًا بعينه حتى لا تكون غيبةً لشخص معين معروف, يقف خصمًا لي غدًا.

وجوابه: ربما الأمر أشد! فالشخص المعيّن قد يُسامح, فإن لم يفعل فهو خصم واحد يأخذ من حسنانك لوحدِهِ, ولكن هل تأمن أن يصفّ غدًا أمامك عشرة ملايين مؤمنة من بنات بلدك كلّهن يتطلعن لحسناتك اللاتي كنت بها فرحًا مستبشرًا بقبولها, فلا تدري إلا وهي تُقسم بين هؤلاء: هنا بعض أجر صلاة, وهناك أجر صدقة, وهناك أجر بِرٍّ.. ثم هل تأمن نفادَ ذيّاك الرصيد, فتحمل أوزارهن, فهل

تطيق حمل أوزارك فضلاً عن أوزار النساء؟! والمرأة كذلك بالنسبة لجموع الرجال غدًا، فاللهم سلم سلم. وحديث المفلس حقيقٌ بالتدبر وقَمِنٌ بالتذكير دومًا. والعبرة هنا في المظالم عامة, وعلى قدر الحاصل يكون التحصيل, وبحسَبِ المظلمة يجري الاقتصاص!

فلا تكتب بخطك غير شيء　　يسرّك في القيامة أن تراه

يا صاحبي: تقول: إن العموم لا يضر أحد, فكيف لك بذلك؟ فتخيل معي مجلسًا من – عشرات أو مئات المجالس – فيه شابة من بنات بلدك, وفي المجلس ذاته امرأة أخرى من غير البلد, فتقرأ عليها تلك (الطرفة!) أو أن ترسلها لها برسالة! فهل تصوّرت مدى الأذى النفسي الذي يلحقها؟ وهل تظن أن الأنثى بجلافتك وصلافتك وجمودك لا تتأذى بمثل ذلك؟!

إن الأنثى روح رقيق فأدنى خدش يؤلمه.. ونسمه شذيّة فأقل أذى يتلفها.. ووردة غضّة فأهون مسّ يُذويها.. وفؤاد خفّاق فأيسر حرف يُمِضُّه..

وفي النهاية هي أمك, هي أختك, هي بنتك, هي جارتك, هي زوجك.. هي الأنثى التي زعمت يومًا أنها.. "حبيبتك"!

إطلالة: خفقُ الفؤاد بالحُبّ كالمِلْحِ.. بل كالسكّر؛ إن فُقِدَ كسدَتْ الحياةُ، وإن زاد تلِفَتْ..

إذا لعب الرجال بكل شيءٍ　　رأيت الحبَّ يلعب بالرجالِ

المهلكتان

لقد تأملت سيء الأخلاق فما رأيت أشأم من خصلتي الكبر والحسد، ثم تأملتها في القرآن فوجدتهما سبب إبلاس إبليس في الشر وارتكاسه في الخذلان ووقوعه في اللعنة والرجم.

لقد حسد آدم وتكبّر عليه، فأخلِق بمن تشبّه به في سواد قلبه أن يمتنع الخير عن قلبه ومن قلبه، فحب الخير للناس محتاج لقلب واسع طاهر ونيّةٍ طيبة حسنة، وقبل ذلك لمحض توفيق من الرحمن.

الطاعة بين جناحي طمع

جُبِلَ العربي ومن بعده الأمم على الأنفة من الطاعة، واعتبارها قيدًا لحريته وكسرًا لعزته.

ولما كانت أمور الناس لا تستقيم إلا بإمام مطاع؛ أبدأ الشرع فيها وأعاد، وكرر وحذر من المخالفة والخروج عن الجماعة، والشذوذ بالمنابذة.

لذلك كان المسمى الشرعي السائد لما عليه السلف الصالح هو: أهل السنة والجماعة، فهم يحرصون على العمل بالسنة قولًا وعملاً واعتقادً، ويحرصون كذلك على الاجتماع، ابتداء من الأسرة الواحدة وانتهاءً بالاجتماع للأمة خلف إمامها الأعظم، فإن تعددت الدول توثّقوا من بيعة إمامهم، ولم يشقوا عصا طاعته، مع موالاتهم للمؤمنين عامة.

المقصود: أن بعض القلوب والألسن تضعف عند ورود هذه المسألة عليها.

وللشيطان فيها نصيبان لا يبالي أيهما أصاب من العبد، إن لم يعصم منه الرحمن.

فتارة: ينتصب الشيطان للناظر فيها فيلقي في روعه تعظيم الإنكار دون اعتبار أهمية الاجتماع وخطر الفرقة وبذور الفتنة والشقاق، وأن من عظّم أمر الاجتماع فهو متّهم بالمداهنة أو ممالأة السلطان، وله في ذلك أحابيلُ آخيّتها صولة الإنكار وقلّة البضاعة في العلم. وقد يؤتى المرء من طمع في جاه أو ثناء من العامة والرفاق، ولهو أشد على كثير من جاه من ذي سلطان! فيلبس مسوح الزهادة على جثمان الطمع.

والثانية: بالركون إلى الظالم - بزعم الحرص على الاجتماع - دون مراعاة تعظيم الأمر والنهي، ولو أفضى مآلًا لتبديل الدين! وقد يؤخذ بغفلة تارة أو بتفريط في بذل الوسع في الاجتهاد أخرى، أو بطمع في لعاعة دنيا من جاه مائل أو حطام زائل.

وبالجملة: فلا بد للمؤمن من تعظيم الأمرين جميعًا، وحسن الموازنة بينهما، فهما جناحا السلامة للمجتمع المسلم، وهذه جادة السلف الصالح، ألحقنا الله بهم غير مبدلين ولا مضيعين.

مسافة اختلاف الرأي بين الراعي والرعية

الحمد لله وبعد:

لا بد من التسليم أوّلًا بمقدمتين:

الأولى: أن الله خلق عباده المؤمنين أحرارًا, ليس لهم عبودية إلا لربهم, ولا يملكهم غيره, _حتى الرقيق الأقنان فملكية الأسياد لهم جزئية, ومقيّدة بالمعروف_ ولكلِّ مؤمنٍ رأيُه المستقل الذي به يختار طريقه, راكبًا صهوة إرادته التي سيحاسبه الله عنها بقدر ما أعطاه من ملكة وفقه وعقل, وهو مُطالبٌ باتباع شرع الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه, وفي النهاية فهو ميسّرٌ لما خلق له "وهديناه النجدين".

الثانية: أن من ضرورات اجتماع الناس وعمارتهم الأرض التي اختارها الله وسخرها لهم, وجعلها ميدانًا لابتلائهم واختبار مدى عبوديتهم له سبحانه, ليقيموا بها دينه, أن يكون لهم قادة يسوسونهم وينقادون لهم ليختاروا لهم أفضلَ الأمور وأرفقَها بهم, ويفصلون بينهم النزاع والخصومة, ويتعاونوا جميعًا لتحقيق ما خُلقوا له, إذ لو لم يكن لهم قائد مُطاع لتسلّط قويهم على ضعيفهم, ولتفرّق أمرهم, وضعف شأنهم, واستطالت عليهم العاديات. إذن فلا بد لهم من أمير ينقادون لأمره, لذا شُرعت الإمامة وجُعلت طاعة الأمير من لوازم الجماعة, وصارت طاعته في المعروف من طاعة الله, وشدّد في نكث البيعة أو الخروج إلا لمبرّر من الشريعة.

ولـمّا كانت تبعية الناس لساستهم أمرًا لازمًا كان من محاذير تلك القضية أن تتحول الوسيلة لغاية, بمعنى أن يَنزع الرئيسُ الذي قد جُعِلَ لتعبيد الناس لربهم إلى مشاركة الرب في ذلك الأمر بتعبيدهم له ولإرادته الرئاسية أو الملكية أو العسكرية ونحو ذلك, وقد يصل بعضهم للتعبيد المطلق كفرعون, وقد يقصُر بعضهم دونه,

ومدار الأمر على منازعة العبودية في أي شُعبة من شعبها, والخطوة الأولى في ذلك الطريق هي الاستبداد بالرأي دون الجماعة, ولمّا كان الأمر بهذه المثابة من الخطر على أصل الغاية من الخليقة ضُبط الرؤساء _أيًّا كانت رئاستهم_ بأمرين:

الأول: أن طاعة الأمير تابعةٌ مقودةٌ لطاعة الله تعالى, "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" وتأمّل كيف لم يفرد ولي الأمر بطاعة مستقلة, بل جعلها تابعة لما سبقها من طاعة الله ورسوله, لذا فعند التعارض فليس هناك إلا تقديم طاعة الله _ومنها طاعة رسوله_ دون ما سواه. ومن تشديد الله تعالى في هذا الأمر العظيم قوله تبارك وتعالى في بيعة النساء: "ولا يعصينك في معروف" تنبيهًا على أنه لا طاعة لمخلوق مهما علا شأنه في معصية الخالق, وهو التشديد المؤكد في قضيةِ إفراد الطاعة لله وحده لا شريك له. قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٧ / ٦١): "ولفظ الآية عام, أنهن لا يعصينه في معروف. ومعصيته لا تكون إلا في معروف؛ فإنه لا يأمر بمنكر, لكن هذا كما قيل: فيه دلالة على أن طاعة أولي الأمر إنما تلزم في المعروف, كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنما الطاعة في المعروف" ونظير هذا قوله: "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم" وهو لا يدعو إلا إلى ذلك. والتقييد هنا لا مفهوم له؛ فإنه لا يقع دعاء لغير ذلك, ولا أمر بغير معروف"

قلت: لذلك فقد قرر العلماء أن من أنواع الشرك؛ شركُ الطاعة. ومن دلائله قوله تعالى: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله" وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم أحلوا الحرام فأطاعوهم, وحرموا عليهم الحلال فاتّبعوهم. فهم إذن لم يعبدوهم بالقرابين, ولكنهم أعطوهم حق التشريع لهم من دون الله, فحرموا عليهم وأحلوا لهم, فاتبعوهم في هذا.

الثانية: أن الله أمر الأمير بالشورى, وأن لا يستبدّ بالأمر دونهم, فرأي الجماعة خير من رأي الواحد, سواء في قرب الرأي من إصابة الحق, أو في سلامته من الهوى

الخفي وحظوظ النفس التي تستتر أحيانًا خلف القول بالمصلحة العامة. ولقد كان فرعون سلف سوءٍ لكل مستبدٍّ برأيه وحكمه دون المشاورة بزعم الإصلاح: "قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"

وقال الإنجليزي إدوارد دنيسون في وصفه للهالك أتاتورك: إن أتاتورك إذا أراد إدخال إصلاح يجعله قانونًا مفروضًا على الناس, خذ مثلاً مسألة الحروف, لو ألفت لجنة لبحثها لقضت سنوات.. وأما كمال باشا _أي أتاتورك_ فإنه جلس مع آخر, أظنه وزير المعارف, ووضع معه الحروف التركية اللاتينية ثم قال: غدًا تكون هذه حروف البلاد, وفي الغداة فرض على الناس تعلمها!

مع التنبيه إلى أنّ معيار الشورى في الإسلام: أن تكون لأهل العلم والرأي والمعرفة ممن فُحِصَ علمهم وفقهم ودُربتهم وخبرتهم وتجربتهم, أما أن تكون المشاورة لغير أولئك فإنّما هو محض التفافٍ على الشورى الحقيقية إلى شورى صوريّة, يكون الغرض منها موازنات معيّنة بين أقاليم أو تيارات واتجاهات, مما ينشأ عنه سلب الجوهر النفيس والإكسير النافع للشورى البناءة, إلى أن تكون معبَرًا لنزوات الساسة, وتمريرًا للقرارات المُحرجة!

وبعدُ؛ فلا يعني اختلاف رأي المرعيّ عن الراعي وإظهاره أن يكون لفساد ذات بينٍ, أو لغرض شقِّ العصا, إنّما هو رأي يقترحه المؤمنُ لغيرته على بيضة أمته وجمعيتها على الهدى والصواب, فإن أصاب فقد حاز الفضل, وإن أخطأ فالله يغفرُ له, شريطة أن يأتيَ البيوتَ من أبوابها, وأن يُخلص النيّة من آفاتها, مع مراعاة الرفق والحكمة, وأن يتّبعَ ولا يبتدع. وحال سلف الأمة ناطق بهذا, شاهدٌ به, مع الأخذ في الاعتبار أن حكم الحاكم في المسألة التي ساغ فيها خلاف أهل العلم يرفع الخلاف والنزاع التطبيقي, شريطة أن يكون رائده ابتغاء مرضاة الله دون سواه, وليس على الرعيّة التنقيب في النيّات, لكن على العلماء مقايسة الأمور بأشباهها, وإلحاق الفروع بأصولها, وقراءة المشاهد الكلية للوقائع المحكومة بالنظر

للمصلحتين العظيمتين: عدم تبديل الدين بنسبة الباطل لهم وتشريعهم له, والحرص على حفظ الجماعة من التشقق والتصدّع والفرقة وذهاب الريح, بمراعاة القاعدة الفاذّة الجامعة المانعة: المصالح والمفاسد, فعليها أُقيمتْ السياسة الشرعية للراعي والرعية, وما أكثر المتسلقين لحظوظهم عبرها عن علمٍ أو جهل, وإن كان هذا لا يعني بحالٍ اطّراحها, بل تنقية مشربها من كيزان الحظوظ.

وبعدَ إبداء المؤمن رأيه الذي تحتاجه أمّته؛ يكون قد أدّى الذي عليه, فكلٌّ مُطالبٌ على قدرِ مِنحةِ الله له, فمن بسط الله له العلم فسيُسأل غدًا عن علمه, ومن بسط الله له السلطان فسيُسأل غدًا عن رعيته, وعلى قدر العلم والقدرة يكون السؤال للجميع, ورُبَّ مُبارَكٍ قد أسقط الله به عن الأمة العذاب بعدما حمَّ, وفروض الكفايات تنقلب للأعيان عند عدم الكفاية كلٌّ بحسب ما أوتي, وعلى قدرِ ما بُسِطَ له, وعلى قدر استحكام غربة الإسلام تعظم مواطن الطلب لمواقف الأخيار.

وخيرُ عباد الله من استعمله ربّه في طاعته, واستغرسه في عبادته, وكان في المكان والزمان والحال الذي ينبغي أن يكون فيه المرضيّون. اللهم اسلكنا في سبيلهم يا حي يا قيوم, يا ذا الجلال والإكرام.

١٤/ ٨/ ١٤٣٤

حينما تخنق الفروع أصلها، وتمنع الوسائل غايتها!

الحمد لله، وبعد: فمن ألف باء فهم المسائل حسن التصور لها إجمالاً، أما تحقيق حدود التفاصيل فهو ميدان اختلاف الرأي، وفي دائرته يكون السجال مؤيدًا بالبراهين.

كمسلمين لدينا كلية مطلقة لا تقبل الجدل والتمحّك، ولا الضبابية والتمحّل، تلك هي محورية تحقيق العبادة لله جل وعلا.

فهذا القدر الكلي مجمع عليه، لذا فمنه المنطلق في الحوار وإليه العود في الترجيح.

فموضوع الغاية من الخلق محسوم بآية الذاريات، إنما الشقاق يكون بالقفز الفكري أو الشعوري خارجه! لذلك فطريقة القرآن هي رد الناس إلى هذه الغاية مهما تلونت سبلهم وأسبابهم، فيستحيل أن يتعدد الحق في نفسه، إذن فلا بد من مرجعية مهيمنة وحاسمة، تلك بلا تردد هي حاكميّة الوحي المنزل.

دعونا نقف على أمثلة متنوعة الألوان والرسوم حتى ندرك خداع النفس الأمارة لصاحبها حينما تتلفع له بقناع النصح والوداد المُخفي لما تحته من وجه الحقيقة الآثمة!

ثَمّ خمسة أمثلة، الأول: مثال الفقيه المبرّر بليّ أعناق النصوص لما يراه من تقديم مصلحة دنيا الناس على دينهم بتضخيم جانب أمن الجسد على أمن الديانة.

فحينما يتوسع الفقيه في منطق تسويغ فعل السياسي خارج حدود المقبول، وينشغل بترقيع خَللِ السياسي في مقابل تضخيم خوف المآلات بحجة - أو شبهة - دفع ورفع الفتن المتوهّمة، فنحن هنا أمام مثال لتقزيم الأصل وهو تحقيق العبادة لرب العالمين في سبيل حفظ دنيا لفرد أو جماعة. وكم من مبطل بلباس ناصح!

ولا نعني بذلك إلغاء القصد النبيل للفقيه, فهو أمر قد جاءت به الشريعة وعظّمت شأنه, فلا يقوم الدين إلا بدنيا صالحة, والتاريخ شاهد صدق, إنما المطلوب أن يُحجّم الأمر بقدره الشرعي فلا يكون هو الأصل دون تحقيق العبادة لله.

وللتوضيح نقول: تحقيق العبودية عبادة محضة ومحور لا يقبل التجزئة, أما غير ذلك فهي وسائل لتحقيقها لا غير, فهذه الوسائل ملحقة بالعبادات من جهة أنها تفضي إليها لا أنها هي.

قال تعالى: "والفتنة أشد من القتل" فالفتنة حينما تصرف عن الأصل الأعظم وهو الإيمان فهي بلا ريب أشد من قتل يُتلف الجسد وتبقى بعده حياة الإيمان. وفرض الوقت هو أن تُحفظ العبادات ووسائلها بحيث لا تنقلب الوسيلة غاية ولا الفرع أصلاً, وبالمقابل لا يجوز أن تُلغى الوسيلة بحيث لا يبقى للمرء بعدها لغايته وصول.

فحاكم الشام – على سبيل المثال لا الحصر – قد بدّل الدين وغيّر الملة وحارب الشريعة, فليس من الحكمة الشرعية في شيء أن يؤمر الناس بمسالمته وهو يظنون أنهم قادرون على إبداله بالصالح في الدين والدنيا.

الثاني: الغيور المنكِر المتحمس الذي ترتاح نفسه للّجَجِ والخصام, والعجلة, والبداءة بالتغيير بسلاطة اللسان وسوء الظن وتفتيش النيات وكشف العورات والفرح – عمليًّا – بالزلات, ونشر المنكرات وإشاعتها بقصد حربها وكسرها, والتساهل في اتهام أهل العلم والفضل بالتقصير في القيام بأمر الدين, ووصمهم بالمداهنة وبيع الآخرة نظير عمالةٍ من سلطان.. ونحو ذلك مما قد كُفيه ولم يكلّف به, ولكن أبت عثرتُه إلا أن تُكرعه حمأة البغي!

وقد يزيد هذا العَجولُ بلا علم ولا حلم فينكر باليد ما ليس تحت يده ومما ليس مأذونًا له فيه, وقد يستطيل بغيًا فيستطيب إشهار السيف على من حرّم الله في سبيل إقامة أمنيةٍ لا يراها خارج جمجته الحيرى! فيفرح بدرس نواقض الإسلام دون

درس موانع التكفير بل يرعيها أذنًا صماء, فيكتفي بالأولى ليركض بها في نكيره, ويتعمّد الإغماض عن الثانية لأنها تقيد حريّة طيشه! ويكأنما نسيَ أن شارع الأولى والثانية واحد. وكم من مريدٍ للخير لم يبلغْه, وكم من كارثة لا ترقؤها الأيام ابتدأها من يظن فعلَه صالحًا! "ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا"

يا صاحبي: إنكار المنكر فرض على الأعيان أو الكفايات بحسب الأحوال, فاحرص على اعتدال رمّانة ميزانك بلا وكس ولا شطط, فلا تقعد عن إنكارٍ مشروع, ولا تتخوض مالم تأمرك به الشريعة.

الثالث: الداعي إلى سبيل ربه ولكن عبر التوسع فيما يراه وسيلة جاذبة للناس للخير الذي يدعوهم إليه, فيركب المشتبه, ويتوسع فيما اختُلف فيه, وينسلخ من ضوابط من أجازوا له ما هوي مرحلة بعد أخرى حتى تظهر عورة منهجه بعد سقوط آخر ورقة للتوت ولو من غيره ممن استنّوا طريقته, بل َربّما عصى ربه في سبيل طاعته! والله طيب لا يقبل إلا طيبًا, ولم يجعل هداية خلقه وطبّ قلوبهم وأجسادهم فيما حرّم عليهم, وليس كل طريقٍ للحق موصلٌ وإن نبل هدف سالكيه.

فقف إذن حيث وقف سلفُك الصالح, فإنهم عن علم وورع وحكمة وتوفيق كفّوا "فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون"

الرابع: المرء مع أسرته من زوج وذرية, فيسعى لأن يملأ أعمارهم بهجة وسرورًا, ويتذكر فصول الحب وحسن المعشر والرحمة والكرم ونحوها, ولكنه في غفلة هائلة عن النصح الحقيقي والشفقة التامة والحب الصادق الذي يفضي به إلى أن يأخذ بأيدهم إلى رضوان الله والجنة.

جميل جدًّا أن ترسم الضحكة والبسمة على محياهم شريطة أن تعمل على أن يستمر هذا معهم بعد رحيلهم عن هذه الدار الصغيرة الزائلة, فاعمل على رسم الهدف النهائي الأخروي وصِلْهُ بمباهج الدنيا التي لا تحلو أصلاً إلا مع طاعة الله. فإن

رأيت فرعًا أمّارًا بالسوء فاهتف به: "والآخرة خير وأبقى" "ورزق ربك خير وأبقى"

الخامس: المؤمن مع نفسه في حال زجرها أو إكرامها, فمن شق عليها بأطرِها على مسير لم تؤمر به, ولم يرفق بها في طريقٍ صالحٍ حتى كلّته وملّته, فحبس غريزته تأثّمًا دون إفراغها فيما سخّر لها خالقها من المباح, أو أطلقها حول الحمى, ثم أولجها الحمى, حتى إذا طرقت الحرام وألِفت العصيان لم يسمع لنداء الإيمان في قلبه ركزًا!

وكما أن الإيمان لا يصح دون علم؛ فكذلك العلم لا ينفع دون إيمان, وتأمل كيف جمعهما ربنا بقوله: "قال الذين أوتوا العلم والإيمان"

فإحسان العبادة غاية الصدّيقين, والرفق بالنفس مع الحزم معها وسيلة تحقيق هذا المقصد الأعلى بإذن ربنا الأعلى, ومتى طغت الوسيلة على الغاية هلكت الراحلة والراحل, والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

ومضة: ضع يدك على فؤادك ثم اسأله: أي فؤادي، متى خفقتك الأخيرة؟!

اللهم اجعلها على الإيمان (١).

....

صحيفة الاقتصادية ٨/٨/ ١٤٣٥

مزالق تطبيقية في البصمة الوراثية D.N.A

الحمد لله, وبعد: فمن عيوب البشر – وهي من مزاياهم أحيانًا – محبتهم للتجديد والابتكار ومللهم من الرتابة والتكرار, فهي عيب إن جلبت السَّأم من أمر لا بد منه لصلاح الإنسان في دينه كالذكر والصلاة واجتناب الحرام ونحوها, أو في دنياه كفتوره وكَسَلِهِ في عمله وطلب رزقه ومصلحته ومن يعول, كما ملّت بنو إسرائيل المنّ والسّلوى للبقل والقثّاء.

وقد راعى الشارع الحكيم ذلك فنوّع العبادات من ناحية جنسها ونوعها وزمنها ومكانها وقدرها, وقسمها على القلب واللسان والجسد والمال, وجعل للجنّة أبوابًا ثمانية ينادى من اجتهد في عملٍ من بابه.

ومتى أحسن الناس التعامل مع هذه الغريزة النفسانية فإنها تنقلب دافعًا للعمل ووقودًا للعزم وحاديًا للهمّة, كمن نوّع أذكاره أو جدّد طريقة صدقته أو نوّع سبيل طلبه للعلم أو التجارة ونحو ذلك.

يدخل الخلل من هذا الباب من جهة تداخل حب التجديد أو التنويع أو التبديل فيما لم يأذن به الله لحفظ دين الناس أو دنياهم, ومنه تحتّم مصلحة بقاء ما كان على ما كان. وهذا باب واسع في السياسة ووسائل الدعوة وغيرها ولا تكفي هذه الحروف لبسطها, والمراد ذكر شاهد بذلك وهو ما يسمى بالفحص الجيني D.N.A أو تحليل البصمة الوراثية أو الحمض النووي, وكل هذا فرع عن الهندسة الوراثية.

وهذا العلم جديد بكليّته, ومع أن المشتغلين به قد قطعوا شوطًا بعيدًا فيه, وثبتت لهم فيه أقدام, وصارت بعض نظرياته قطعيات؛ إلا أن لكل جديد فورة وشِرَّةٌ ولأهله صولة وعجلة, حريّ بأهل الإسلام منهم أن يتأملوا وقع أقدامهم في

خوضه حتى لا يزيغوا, وأن يتفقهوا في حدود الله فيه حتى لا يَضلّوا ويُضلّوا, فما من أمر في هذه الدنيا إلا ولله فيه علم وحكمة وحُكم. فلم يخلقنا سدى ولم يتركنا هملاً. "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"

إن هذا العلم متعلق بجهة إثبات الأصل النَّسَبي وإعادة الفرع له سواء كان هذا الفرع شخصًا يراد ردّه لسلالة آبائه وإن بَعُدوا جدًّا, أو كان المراد رد الفرع الأصغر وهو الخلية البشرية سواء أخذت من دم أو شَعر أو لعاب ونحوه فيعاد هذا لأصله وهو الشخص الواحد المعني به, وهذا نافع جدًّا في أدلّة إثبات الجرائم وإقامة القرائن في الطب الشرعي ونحوه.

ولا بد هنا من استشعار أن أدلة البصمة الوراثية تكون ظنية لا قطعية من جهة احتمال تعرض التحليل لأخطاء بشرية أو مخبرية، كاختلاط العيّنات أو إبدالها سهوًا أو عمدًا وغير ذلك.

إذن فهذا العلم الجديد له جانبان:

الأول مباح بل ممدوح: وهو ما ساعد في إحقاق حق شرعي وإبطال باطل, فمن ذلك: مسائل الطب الشرعي والجنائي, كما أن الفحص الجيني يحل محل القيافة بل هو أضبط منها. ومن المهمات بيان أن القيافة إنما يلجأ إليها لفرز حالة فردية تنازع عليها أكثر من طرف, وليست لفرز حالات جماعية والكشف عن نسب قبائل بأسرها.

إذن فمجال جواز الاعتماد على البصمة الوراثية في مجال إثبات النسب محصور في حالات التنازع على مجهول النسب، سواء أكان بسبب انتفاء الأدلة أو تساويها، أم كان بسبب الاشتراك في وطء الشبهة ونحوه. كذلك في حالات الاشتباه في المواليد في المستشفيات أو مراكز رعاية الأطفال أو أطفال الأنابيب ونحو ذلك. كذلك حالات ضياع الأطفال واختلاطهم، وتعذر معرفة أهلهم، أو وجود جثث لم يمكن

التعرف علي هويتها، أو بقصد التحقق من هويات أسرى الحروب والمفقودين ونحو ذلك. وبهذا صدرت فتوى المجمع الفقهي الإسلامي.

الثاني ممنوع: وهو ما ينادي به بعض الناس من إبدال الطرائق النَّسَبِيِّة الشرعية به, فيرُدُّون النسب بإطلاق للماء وليس للفراش, ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد حسم المسألة بقوله: "الولد للفراش" فمتى كانت المرأة فراشًا للرجل فأولادها ينسبون له شرعًا, لذلك لا يجوز الاعتماد على البصمة الوراثية في نفي النسب، كما لا يجوز تقديمها على اللعان فالقرآن قد حسم المسألة في سورة النور.

وتأمل حال أحدهم حينما أراد إلحاق ابنه العشريني معه في أمريكا, فاشترطت السفارة البصمة الوراثية, فتبين أنه ليس من مائه, فحدثت بسببها كوارث لم ترقأ حتى اللحظة, وأترعوا كأَسَهُ تعاسةً وصدرَهُ همًّا!

ومن جدير التنبيه: أن الشريعة تراعي كل قضية من جميع جوانبها بدون إغفال أو ميل, لذلك فإثبات النسب يُكتفى فيه بالاستفاضة وعدم نفي المنسوب إليه الولد, فهذه هي الجادة وهي الأصل, أما غيرها فهو الاستثناء ومن أفراده الاشتباه والاحتياط, ومن ذلك احتياط رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ذلك المنسوب المتنازع عليه, فبعد حكمِهِ بأن الولد للفراش نظر لشبهه الشديد بالآخر فقال: "واحتجبي منه يا سودة" وهذا من باب الاحتياط للطرفين, فالحُكم لنَسَبيّة من وُلد على الفراش كان على الأصل, أما الحجاب فكان على الاحتياط. ويُلحق بهذا الرضاع المشكوك في عدده فيحتاط له من الجهتين فلا زواج ولا محرمية.

ومهما يكن من أمر فلا يجوز استخدام البصمة الوراثية بقصد التأكد من صحة الأنساب الثابتة شرعًا، وما يفعله بعض أهل الطيش باشتراط فحص البصمة له عواقب وخيمة ليست على الأفراد فقط بل على قبائل بأسرها, ولنوضح الصورة بمثال كاشف:

فعند أرباب البصمة أن النسب العربي محصور في بضع نتائج لا يخرج عنها بموجب فحص عينات فردية عشوائية ليست استغراقية ولا أغلبية لا زمانًا ولا مكانًا, فإذا وجد شخص في الهند أو بريطانيا يحمل ذلك الجين حكموا بعروبته رأسًا حتى وإن كان لم يسمع بالعرب ولا لسانهم ولا موطنهم لا في حياته فحسب بل بعدة أجيال سابقة له! وهذه معضلة لن يستطيعوا الفكاك منها لأن اللغة والموطن معتبران في الحكم, وتأمل عكس ذلك يظهر لك المراد, فلو أن إنسانًا أو جماعة نزحت لجزيرة العرب قبل أربعة آلاف سنة أو أكثر ولم يخرجوا منها وتكلموا لسانها وتطبّعوا وسادوا, ثم تبيّن أن حمضهم النووي مخالف للجين السائد فهل يمكن بحال نفي عروبتهم؟! ولا تعجب فقد نشر بعض الناس مثل هذه الألغام المدمّرة للنسيج المجتمعي, فالعرف الصحيح السائد هو أن العربي هو من كان من نسلٍ قد درج في أرض العرب لبضعة أجيال وتكلم لغتهم وتطبع بطبائعهم ويكفيه ذلك. أما ضده فهو الأعجمي – ولاحظ اعتبار اللغة من الإعجام والإعراب –.

ومن فروع ذلك: انتساب الفخذ القبلي لجذمه, فما عدّه الناس وتعارفوا عليه واشتهر بينهم بلا نكير أن هذا البطن من تلك القبيلة فهو المعتبر, فالشيوع والمواضعة والاشتهار هي مأرِزُ قبول النسب وآخِيّتُه وليس الحمض النووي بحال.

وتأمل ما لو أن رجلاً قبل ألف سنة حالف قبيلةً ثم انتسب إليها وأحفاد أحفاده ثم ظهر التحليل اليومَ مخالفًا! بل لو أن امرأة ما قبل مئات السنين أدخلت على زوجها ما ليس منه – لشبهة أو خطأ أو إكراه أو ذنب – ولحق به لأنه ولد على فراشه شرعًا, ثم تناسلت أجيال وبطون وقبائل من ذلك الإنسان, ثم أظهرت البصمة نفي أولئك, فما ذنبهم في أمر قد حسمه الشرع بنسبتهم لأبيهم الشرعي دون صاحب البصمة؟!

وبالجملة؛ فالشرع قد اكتفى بالاستفاضة والاشتهار بلا نكير, وحَكَمَ للفراش لا للبصمة, فحكمهما غير متفقين على الدوام فلينتبه, إذ مناط الشرع الفراش ومناط البصمة الجينات.

لقد راعت الشريعة تكوين محضن آمن صالح للإنسان ليقوم بتحقيق العبودية لربه – وهي غاية الخليقة – لذلك فقد تشنّفت للوئام بين الناس واجتماعهم, وتوسّعت في إثبات النسب وتسامحت فيه، فاكتفت بقبول الشهادة فيه على الاستفاضة، فلا يُطالب بدليل خارجي إذا كان هناك إقرار ما دام واقع الحال لا ينافيه, وعقدت الشريعة معاونات خاصة بين القرابات كتحمل العاقلة للدية والأمر بصلة الرحم ونحو ذلك, فالنسب وسيلة لا غاية, فهو وسيلة لإقامة العبودية بإحسان الاستخلاف الأرضي.

وحتى لا تختلط الأنساب فقد حمت العرض وشددت في الفاحشة وطالبت بحفظ الأنساب. ولكل شيء قدره الذي لا ينبغي الإيغال والتجاوز والتشديد فيه, فيكفي المؤمن أن يعلم من نسبه ما يصل به رحمه ثم لينته, وليحذر من التفاخر بنسبه أو نبز الناس بأنسابهم أو طعنهم فيها فكلّ ذلك عفنٌ جاهلي, وليعلم أن إبليس هو أول مفاخر بأصله حينما قال: "أنا خير منه".

وفي المقابل فقد شدّد الشرع في الانتساب لغير الأب – ومن ذلك الانتساب لقبيلة وهو يعلم أنه ليس منها – فعند الشيخين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام".

ومضة: أعجبني جواب ذلك اللوذعي حينما سئل عن أصله فقال: من طين.

خدعة نفسية.. وللأسف شيطانية!

هي التي أخرجت أبانا من الجنة، فلنحذر عاقبتها.

إنها رغبة الممنوع!

وحبّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا..

وقالت العامة: كل ممنوع مرغوب.

وقال ابن مفلح: "وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه".

ومن مضحكات النفس البشرية أنها بطبيعها تزهد في المحسوسات فور تحصيلها!

ورحم الله من حدب بوصيته:

يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته   لا مرحبًا بسرور عاد بالضررِ

وبعد:

فأقول لكل راغب لما سوى الآخرة:

إذا الحياة لغير الله وجهتها   فطولها في صميم الأمر نقصانٌ

فدَربُها ضيعةٌ تفضي لمهلكةٍ   وزادها جلمدٌ في شكل عِقيانِ

فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا   فالموت والعيش بعد اليوم سيّانُ!

من طلب حقة جملة خسره جملة!

لا بد من السماحة حيال أخذ الحق وإعطائه، والمتأمل يرى أن من أكبر أسباب الشقاق استقصاء الحقوق لأن هناك منطقة صغيرة يسيرة بين الحقّين كل يدّعيها، ولو سامح أحدهما ببعض ما يراه له بردت الخلافات والتأمت الشقوق. وهذا عزيز في النفس الإنسانية!

قال الحسن: ما استقصى كريم قط، إن الكريم يتغافل عن تقصير أهله وصحبه، ولا يستقصي حقوقه عندهم.

وأبلغ من هذا قول رب العزة جل جلاله في وصف كامل الأخلاق صلى الله عليه وسلم: "عرّف بعضه وأعرض عن بعض"

وتسعة أعشار العقل في التغافل، وكما أن الحلم سيد الأخلاق في البداية فالعفو سيدها في النهاية.

فبالتغافل والسماحة والتناسي وحسن الظن قوام أسباب الوئام بين من دب بينهم داء الأمم!

١٤٣٦ ١٢/١٢

لكل أديب..

لا تخجل من بوحٍ خلا من عيب..

ولا تأنف من بثٍّ يريح صدرك إن لم تُطق احتماله..

اكتب وارسم جذل طفولتك على صفحة السماء بحروف مدادها شعاع شمس البكور..

تفاءل بعناية خالقك وانتعش بحسن ظنك..

ولا بأس من نقلٍ يثري تجربتك، فاختيار المرء قطعة من عقله.

كم هو سام ذلك اليراع الذي يخط بأوتار مشاعرك أجمل خيوط نبض فؤادك المفعم بأمل يتألم من خيبة عابثة..

وروح تهفوا أن تعانق شمس الأصيل لكنها مثقلة باجترار ماضيها الدفين تحت أكوام نفوس لا تستحق أن تنتمي لحبها يومًا ما.

اكتب غير ملتفت وراءك..

وخذها حادية شادية من كل محب لحروف تنبض أصدق مشاعر القلوب وتضيء بأجمل مشاعل الأرواح..

وكلنا لك قائلون: سلم بوحك يا عزيزي وجبر الله كسرة قلبك..

فكل أديب معذَّب، والدم القاني الذي ينزف حروفك من أسلة قلمك قد وصل وغذّى قلوبًا ألهبها عطش الخريف!

رُباعيةُ الفَلاحِ

الحمد لله وبعد؛ فإنّ رباعية الفلاح – فاعلم – هي: سلامة القلب، وقوّة الإرادة، وصحّة العلم والذكاء. فسلامة القلب وقوة الإرادة وصحّة العلم عليهما المعوّل بإذن الله تعالى، أما العقل فيكفي في مناط تكليفه تمييز الخير من الشر. فالقلب هو موضع نظر الرب جل وعلا، فأهمّ المهمات صلاحُه وطيبه ونقاء موارده حتى يكون نقيًّا طاهرًا طيّبًا، تعينُه بإذن ربه إرادةٌ قويّة حازمة صابرة، لا تلين قناتها لشدائد البلايا وكبريات الرزايا، بل تزيدها قوةً ومضاء وعزمًا، والطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى مفتقر لعلم صحيح يضيء الطريق لنفوذ البصيرة وأنّى ذلك إلا بالوحي المنزل وعلى قدر العلم النافع كمًّا وكيفًا تكون الرفعة وعلو المراتب بإذن الله، فإن ساعد على ذلك ساعدُ ذكاء وحِدّةُ نباهة وجودة ذهن؛ كان المُرتقى العظيم الجليل إلى الله تبارك وتعالى بإذنه ولطفه ورحمته.

وبحمد الله تبارك وتعالى فلم يجعل الله الذكاء شرطًا لرضاه وجنته، إنما علّقه على القلب السليم، فقال سبحانه: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)، فالقلب لا عذر لأحد في بذل وسعه لسلامته لتعلّق المصير المحتوم بذلك، ولكن يحتاج المؤمن لجرعات أرادة حازمة لتطهير ذلك القلب، فالقلب هو الوعاء القُرباني للإله العظيم سبحانه، والإرادة هي الطاقة المُحرّكة والعاملة والحاملة لهذا الوعاء العجيب، أما العلم فهو النور المضيء لجهات بقعة الابتلاء لهذا الإنسان، فيضيء له سبيله الموصل – إن سلكه وثبت عليه – لجنات النعيم، وليس هذا الضياء سوى الوحي المقدّس المنزل، لهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب، ولكن لا تمييز للمرء بدون عقل يسمح له بالمعرفة للحال والمآل والخير والشر على الإجمال، وحسن التصور لما حوله وما مضى وما يستقبل، ويمكّنه من التعامل مع جوارحه الحسية والمعنوية حتى تكون القيادة له والسيطرة لديه، وهذا القدر من العقل هو

القدر الكافي لحمل الأمانة وهو المناط للتكليف، أما ما زاد عليه فهو الذكاء، والذكاء مراتب عديدة وأنواع متشعّبة، ويزيد حساب التكليف مع زيادة حدّته وقوّته.

لذلك فالذكاء سلاح ذو حدين فليس كله خير، فإن استعمله في طاعة الله قدر وسعه فهو معراج هائل سريع لنيل القربات العظيمة، لأنه ينفذ به لكوامن العلوم ويحلق به في سماوات المعارف ويحصل به فوائد غيوث الوحي، فيحفظ الكتاب والسنة ويغوص في معانيهما ويربط بينها ويحلل العُقد ويجمع الأشتات ويفرّق بين ما فرّقته الشريعة، ويجمع بين ما ماثلَتهُ حقيقة وإن اختلف ظاهرًا، ويقارن بين كلام العلماء فيعرف مناطات اختلافهم ومسائل إجماعهم ويستوعب ذلك بما أمدّه الله بذكائه، فيحيل زبدة هذا العلم لقلبه الطاهر السليم، ويستعين بإرادته الصابرة الشديدة للعمل به في نفسه أوّلًا ثم بنشره ونفع الناس به، هناك يكون – بلطف الله تعالى – من أهل العلم النافع والعمل الصالح، وممن رفعهم الله تعالى، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

ولكنّ الذكاء الثاقب بالمقابل باب كبير مشرع على مفاتن الدنيا التي تلوح وتتزين للأذكياء ولا يراها البسطاء، لأنه حقيقة الذكاء أنه نفوذ الإدراك للأشياء كما هي، وعلى قدر الذكاء يكون النفوذ الإدراكي كمًّا بإدراك الأمور البعيدة والخارجة عن المألوفات المعتادة وكيفًا عن طريق النفوذ لتفاصيل التفاصيل مما هو قريب جدًّا حتى غاب بقربه عن إدراك العامّة. فكثير من موارد وساوس الشيطان الخفية سببها ذكاء لم يوفّق صاحبه لاستعماله في مرضاة ربه، فعاد عليه خيبة ووبالًا.

وبالجملة؛ فالذكاء يكون خيرًا للمرء إذا كانت طهارة قلبه وقوّة إرادته مساوية له أو أكبر منه، لأن نفوذه لإدراك الأشياء يكون دومًا محروسًا بقلب طاهر وإرادة صلبة، فهنا تكون حدة الذكاء وقوته وقودًا هائلاً ممتعًا مريحًا يطوي المكان والزمان بثاقب بصيرته، ويرفع الهمة عاليًا لأسقف السماوات بنفوذ إدراكه، لأنه حينها

يستعمل العلم ويستفيد منه خير الفوائد، ويُسخّر علومَ دنياه لخدمة آخرته، فيحصّل النفوذ في جواهر العلوم الربانية بالقرآن العظيم، والضياء الرسالي بالسنة المحمدية، فتنكشف له غوامض العلوم المنغلقة على غيره لا لعدمها ولكن لتشابهها أو تفرّقها أو نسيانها أو كثرتها ونحو ذلك، ولكن البرّ الرحيم جمع له الله قلبًا طيبًا سليمًا، وإرادة رجولية صلبة، وعلمًا من الوحي صافيًا من أكدار الأهواء وأخلاطِ العلوم الأرضية الزائفة، وذكاء نافذًا لجواهر المعاني دون الانتظار طويلاً على عتبات الرسوم والشكليات. ومن أمثلة أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ولا أزكي على الله أحدًا.

والمقصود؛ هو أن المؤمن المريد للفلاح لا يستغني عن الصبر، فالصبر هو المُعيلُ – بإذن الله – للإرادة، ومن لا صبر له فإرادته ضعيفة غير مستحقة لنيل معالي الأمور، ولكن إن قوّى الله صبر المرء قويت على إثره إرادته، فاستطاع – بتوفيق الله له – أن يطهّر قلبه من أدران الخطايا ومشوشات البصيرة، ثم استعمل صبره في تحصيل العلوم النافعة لدينه، المغذّية لإيمانه، العائدة عليه بحلاوة العبادة ولذة المعرفة، ثم حرس قلبه وعقله وإرادته بصبره لله ما دام قلبه يخفق خفقات الابتلاء في دار الابتلاء، والله المستعان.

إن المؤمن حين ينبض فؤاده بمعاني الدين ومقامات الإسلام؛ فنبضه محتاج لجرعات صبر من لدن رب العالمين سبحانه، فهو مضطر إلى الاصطبار لحمل نفسه الإمارة على أحكام التنزيل العزيز، وهو مفتقر إلى كل معاني الصبر أيضًا حينما يسير على خُطا المرسلين حين تنطمس سبلهم وتندرس خطاهم تحت ركام حظوظ دَنايا النفوس وحطام فراغ الرؤوس، فرغبوا العاجلة الفانية دون الآخرة الباقية.

فالمؤمن الموفّق هو من يتحصن بجُنة الصبر عند ادلهامّ الملمّات وانصباب الكُربات، وحينما يرى ببصره وبصيرته أكثرَ الناس قد استبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًّا؛ فإنه يضع كفَّهُ على نابض قلبه صاعدًا ببصره إلى سماء الله الفسيحة يتلوا مثاني الصبر

في كتاب ربه، ضارعًا لإلهه بكل رُوحه وجوارحه ونفسه وكيانه أن يُفرغ على قلبه القُلَّبِ صبرًا يُثبِّتُه حين تزيغُ أقدام الإقدام عن مراضي الملك العلام. ويا رب هل إلّا عليك المعوّل.

المحاسبة والهمّة لطالب العلم

الحمد لله، وبعد: فمِن سنن الله تعالى في خليقته أن نوّع المدارك، وفضّل في المنائح، ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وبثّهم في هذه الدار امتحانًا وابتلاءً. كلٌّ منهم يحرث أيامَه بأعمالِه، ويستبقُ أجلَه مع أنفاسه، حتى إذا بلغ المدى الأخير؛ عادت وديعةُ الروح لصاحبها، ورجعت لخالقها. فإذا أذنَ الله للحساب؛ ابتعث الأجساد وأقام الأشهاد، وجمع الأولين والآخرين.. حينها يكون تأويلُ الكتاب: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذٍ لله) (كل نفس بما كسبت رهينة) (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). وحينها يكونُ الافتراق العظيم في المصير على قدر الافتراق اليوم في التديّن، كما قال سبحانه: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فؤلئك في العذاب محضرون). فلا إله إلا الله حقًّا وصدقًا وتعبّدًا ورقًّا.

فبما أنّ الأمر بهذا الخطرِ أخا الإيمان؛ فقد وجب على كل ناصح لنفسه أن يُراجع صادقًا مسيرته، ويُسارع لإصلاح سريرته، ويحاسب نفسه قبل الفوات؛ كي يستعتب في دار المهلة ويؤوب قبل ألا تحين مناص. (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب وقالوا ءامنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد)، (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين).

يُذَكِّرُنِي حامِيمَ والرُّمحُ شاجرٌ   فهَلاّ تلا حامِيمَ قبلَ التقدُّمِ

ومن فروع تلك المحاسبة: ألا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتّباع، فرُكنا قبول العمل: الإخلاص والاتّباع. ولا يكفي شرطٌ عن مُكَمّله، فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له، ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الائتساء بمن لَهَجَ له بالشهادة بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، وهو القائل -بأبي هو وأمي ونفسي وولدي -فيما رواه الشيخان: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ". أي مردود غير مقبول، وكفى به عن الإحداث زاجرًا. فقل لمن لم يُخلص: لا تتعب! وقل لمن لم يتّبع لا تَجْهَد، (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا).

فمن صِدق المحاسبة: العنايةُ القصوى بتعظيم سنة رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بالجَنَان واللسان والأركان، وعدمُ تقديمِ قول بشر عليها بالغًا قدره ما بلغ، والاعتذار لأهل العلم إن أخطأوا مع ترك متابعتهم، وعدم التشغيب عليهم أو الشماتة أو التنفير أو سوء الظن. واحذر مخالفة منهم أعلم منك ببداهة رأيك، وبخاصة إن تتابع كثير من العلماء على القول به.

واطلب العلم تفز، فإن الله يحب طلاب العلم المخلصين (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) واعلم أنّ مفتاحَ العلمِ الشَّغَفُ.

أصبرْ على مضضِ الإدلاجِ بالسَّحرِ وبالرَّواحِ على الحاجات والبُكَرِ

إنّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربة للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ

وقَلّ مَنْ جَدّ في أمرٍ يُطالبه واستصحب الصبرَ إلا فازَ بالظّفَرِ

قال الجنيد رحمه الله: "ما طلب أحدٌ شيئًا بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلّه نال بعضه". وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟ فقال: "بالمصباحِ، والجلوسِ إلى الصباح".

ومن ثمراتِ المحاسبة: اعتزالُ من تضرّكَ خلطته. فاحذر مصاحبة بعض النفوس التي لا تستطيع العيش والتنفس إلا في أجواء التفرّق والشقاق وانتشار الضغائن، فهي كدغاليب المستنقعات، يغذّيها الكدر، ويقتلها النقاء والصفاء، لا تصحبنّ أولئك فالمصاحبة ذريعة المُشاكلة. ومن خالط الناس وصبر على أذاهم لنفعهم فهو أفضل وأولى، أما من خاف على دينه وفي الناس كفاية عنه فالعزلة أحتم، والعافية لا يعدلها شيء. وليس أروحُ من أنفاسٍ لا تخالطها معصية. واعلم أنّ شيطان الإنسِ أشدُّ فتكًا بالدين من شيطان الجن، وتأمّل تقديم ذكره في الشيطنة في عداوته الأنبياء وأتباعهم: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن).

ولا تصحب شرّ الناس ذا الوجهين، فيأتيك بوجه ويُدبرُ بآخر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تجدون شرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجه".

ومَنْ أطعمكَ دنياه ليطعَم من دينك؛ فألقِ دنياه في وجهه، وانفُذ بعافيتك، فدِينك دَينك لا تثلمنّه، ورأس مالك هو الإيمان ولتحقيقه خُلقت. وقد قال حذيفة رضي الله عنه: "إياك والتلوّنَ في دين الله، فإنّ دينَ الله واحد". وأوصى الإمام الشافعي تلميذه الربيع رحمهما الله تعالى فقال: "مَن أحب أن يَفتح اللهُ قلبَه ويرزقه العلم؛ فعليه بالخلوةِ، وقلة الأكل، وتركِ مخالطة السفهاء وبعضِ أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب".

والصاحبُ ساحبٌ إما للحق والهدى وإما للشر والردى، ومَن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالطِّباع سَرَّاقةٌ، والنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثّرِ بالصحبة. ومن الأصحاب ذبابُ طمعٍ فلا تنخدع بهم ولا تحفل بقربهم. كما قال الأول:

وكان بنو عمّي يقولون مرحبًا   فلمّا رأوني مُعْدمًا مات مرحبُ

والمحبةُ النافعة هي ما كانت لله، وفي الله، وعلى طاعة الله، وفي مرضاته، وما سواها للزوال، بل للوبال. فليكُن ثوبُك نقيًّا من لوثات الهوى، وصحيفتُك بيضاء بطيب عملك.

واسأل ربك الحكمة، فمن أوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فكن حكيمًا هادئًا لا طائشًا متسرّعًا، واحذر أمَّ الندامات: العجلة. وقد أخطأ العجولُ أو كاد، وأصاب المتأنّي أو كاد، وربّ عجلةٍ تُعقِبُ ريثًا. وإن أُعجبتَ برأيك فلا تستعجل قرارَك، وعليك بالتؤدة؛ فقلّما تروّى عاقلٌ فندِم، وكم من حكمةِ ذي رأيٍ تاهت في غَمَرَات العجلة.

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً   أمرانِ فاعمد للأعفِّ الأجملِ

وإذا هممتَ بأمرِ سوءٍ فاتئدْ   وإذا هممتَ بأمرِ خيرٍ فاعجلِ

وفي أمورك الكبار لا تعجل باتخاذِ قرارك، بل شاور الأقوياءَ الأمناء، ثم استخر رب الأرض والسماء، فكم من اختيار يُبنى عليه عمرٌ ومصيرٌ، وربَّ لحظةٍ انبثق منها زمانٌ مختلف. فإذا استبان لك طريقُك، وأضاءت بصيرتُك؛ فاعزم عزم الرجال واحزم أمرك حزم الكرام، (فإذا عزمت فتوكل على الله) ثم بادِرْ على مَهْلٍ، ولا تندم على أمرٍ مضيت فيه بعد استخارتك علاّمَ الغيوب، واعلم أنّ الخِيرة قد يتأخّر إدراكُها. (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

وكم رمتُ أمرًا خِرْتَ لي في انصرافِه   وما زلتَ بي مِنِّي أبرَّ وأرحما

وإياكَ والتّردّد، فإنّه عيبٌ في الرجل، وخَوَرٌ في العزم، بل افعل ما يلزمك أن تفعله، وليكن بعد ذلك ما يكون!

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ   فإنّ فسادَ الرأيِ أن تَتردّدا

وإنّ من أقوى مخلوقات الله – فاعلم – هِمّةُ الإنسان إن صاحبها عزمٌ وثباتٌ ويقين. فلا تعجل، فكلّ شيء بحساب ومقدار. وفي كلّ معركة –حسيّة كانت أو معنوية –

يتبقى هناك خندقٌ أخير، يجتازه المنتصرُ ويُدفن فيه المهزوم، فهل حصّنت خندق إيمانك من عدوّك الرجيم!

واعلم أنّ اتِّبَاعَ العاطفة كثيرًا ما يعقبه الندمُ، فاتْبَعْ علمَك وعقلَك ففيهما الحكمة، أمّا قلبك فأخّره قليلاً، فعاطفتي الشهوةِ والغضبِ عمياوان، وناصحُ العقل خيرٌ من ناصح القلب. فالنفس تُملِي وتتمنّى، وتُزيّنُ وتُسوّل، وتُبدّل وتتأوّل، والعقلُ واعظٌ ناصحٌ عليمٌ مشفقٌ حكيمٌ، والقلب بينهما حرونٌ متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: "رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله". فمن خاف الله؛ خافَهُ كلُّ عدو، ونزل عليه كلُّ توفيق، واعلم أنّ مصيرك غدًا – بإذن الله –هو قرارُك اليوم.

إذا هبّتْ رياحُكَ فاغتنمها فإنّ لكلّ خافقةٍ سُكونُ

وإن درّتْ نياقُكَ فاحتلبها فما تدري الفصيلُ لمن يكونُ

وعليك عليك بوقودِ الآخرة وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، واعلم أنَّ الأملَ وقودُ الصابرين، والشوقَ وقودُ المحبين، والرجاءَ وقودُ العاملين، والخوفَ وقودُ الهاربين. وكلُّ شيءٍ تخافه ففرّ منه سوى الله: (ففروا إلى الله) وكلُّ شيء يُحَبُّ لغيره خلا الله؛ فإنه يُحَبُّ لذاته، وكلُّ فوزٍ زائلٌ حاشا الفوزَ بالجنة: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور). ومهما كثُرتِ الحِكَم فلن تجد كهذه الثلاثية الربانية الفريدة: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

واعلم أنّ الموفق هو من وَرَدَ مناهلَ الحكمة من أهلها، وقَدَحَها من معادنها، وتأمّلْ وصية علي رضي الله عنه لصاحبه كُميل بن زياد النخعي، – ويكأنّما يصفُ عليٌّ حال الَ الناس اليوم – قال كُميل: أخذ بيدي علي بن أبي طالب فأخرجني إلى ناحية الجُبّانة، فلمّا أصحر تنفّس ثم قال: "يا كُميل، إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرُها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناسُ ثلاثة: عالمٌ ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة،

وهمجٌ رعاع أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق. يا كُميل: العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسك، وأنتَ تحرس المال، والعلمُ يزكوا على العمل، والمالُ تنقصه النفقة. يا كميل: محبةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها، العلم يُكسِبُ العالِمِ الطاعة لربه في حياته، وجميلَ الأحدوثةِ بعد وفاته، وصنيعةَ المال تزولُ بزواله، والعلمُ حاكِمٌ، والمالُ محكومٌ عليه.

يا كُميل: مات خُزّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.. إلى أن قال: لا تخلُ الأرضُ من قائمٍ لله بحُجّة، إمّا ظاهرٌ مشهور، وإما خائفٌ مغمور، لئلاّ تبطُلَ حُجَجُ الله وبيّناتُه، وكم وأين أولئك، أولئك هم الأقلّون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع اللهُ عن حججِه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمر، فباشروا روحَ اليقين، واستسهلوا ما استوعرَ منه المُترفون، وأَنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلّقة بالنظر الأعلى". انتهى كلامه رضي الله عنه.

ويا طالب العلم: لا تتشعبنّ بك سُبُلُ الطلب، فسيّدُ العلوم كلها هو القرآن العظيم حفظًا وتفسيرًا وتدبّرًا وعملاً ودعوة. وكلّ الطرق الصحيحة لطلب العلم تبدأ وتنتهي بالقرآن العظيم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد العلم؛ فليثوّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين". وربُّ العزة والجلال يقول: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وتدبّر: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) بلى وعزَّتِك. فالموفق المُريد نهضة أمته لا تتشعب به طرق النهوض بالأمة، بل يختصر طريق إصلاحها بالرجوع للينبوع التالد الأصيل القرآن المجيد. ومن ذلك أنّ كلّ أدوات مدافعة النفاق والشرك والكفر والتغريب وغيرها من الشر موجودة بالتفصيل في القرآن العظيم، فعُد إليه وحرّك كنوزه وفُز بنفيس ذخائره، (وبشر الصابرين).

وإن أردت أن تعرف حقيقة اليهود فقد بسطها الله تعالى لك في مئة وسبع آيات من سورة البقرة ابتداءً من الآية الأربعين، فهي أُمّةٌ غريبةٌ أطوارُها، غليظةٌ أكبادُها، متينٌ كفرُها. وفي سورة البقرة فضيحة اليهود، وفي سورة المائدة فضيحة النصارى، وفي سورة التوبة فضيحة المنافقين. ثمّ في بقية سور القرآن مزيدٌ للثلاث طوائف: الغضبُ والضلال والفسق، فإذا اجتنبت صفاتَ اليهود وصفاتَ النصارى وصفات المنافقين؛ فقد اجتنبت الشر كله. ولقد فصّل الله تعالى صفاتهم كي نجتنَّبَها فنكونَ من الحنفاء المرضيين. ومن توضيح الواضحات أنّ عداء الرافضة واليهود والنصارى والمشركين لأهل الإسلام لا يزال ما بقي على الأرض مسلم، لكن معاملتهم تختلف بحسب الأحوال.

ومن حكمة الوالد والمربي والعالِم أن يحرص على تلقين القرآن طلابَه ومُتَربّيه، فعلِّمْهُم القرآنَ والقرآنُ سيعلّمهم كل خير.

واعلم أنّ العقل البشري فيه عجيبةٌ، فإنك إن شُغفتَ بأمرٍ ووليت وجهك ونباهتك ووقتك إليه؛ نشط نشاطًا مُضاعفًا وأدهشك بقوّته وصفاءه، وهنيئًا لمن كان في الله ولله.

لقد ركّب الله فيك أيها الإنسان طاقاتٍ هائلة كامنة تنتظر منك تحديدَ أيّ هدف مشروعٍ تريده، فكن واضح الهدف، حَسَنَ التخطيط لبلوغه، متحلّيًا بالجديّة والانضباط، مع ثقة بالله، وتوكلٍ عليه، واستعانةٍ به، ثم إرادةٍ عازمة، ثم انطلق، فكلُّ من وصل ليس لديه شيء زائد عنك. فآلةُ العلم وحدها ليست كافية، بل الصمصامة محتاجة لذراع عمرو:

وما تَنفَعُ الخَيلُ الكِرامُ وَلا القَنا   إِذا لم يَكُن فَوقَ الكِرامِ كِرامُ

الحَسَدُ آكلُ الحسنات

الحمد لله وبعد، فإن المؤمن حريصٌ على تنقيةِ قلبِه وتصفيةِ صدره وغسْلِ روحِه من سيئات الأخلاق ودنيا النفوس. ولقد تأملت سيءَ الأخلاق فما رأيت أشأمَ من خَصلتي الكبر والحسد، ثم تدبرتُها في القرآن فوجدتُهما سبب إبلاسِ إبليسَ في الشرِّ، وارتكاسِهِ في الخذلان، ووقوعِه في اللعنة والرجم.

لقد حسد آدمَ وتكبّر عليه، فأخلِق بمن تشبّه به في سواد قلبه أن يَمتنعَ الخيرُ عن قلبه ومِن قلبه، فحُبُّ الخيرِ للناس مفتقرٌ لقلبٍ واسع طاهر، ونيّةٍ طيبة حسنة، وقبل ذلك لمحضِ توفيقٍ من الرحمن.

والشيطانُ حريص على تلويث قلوبِ العباد بسواد خبثه وقتار شؤمه، ولم يجد من رواحله كالحسد والكبر. فعند أحمدَ بسند حسنٍ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: "دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمم قَبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ، وَهي الْحَالِقةُ أمَا إنِّي لا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكن تَحْلِقُ الدَّينَ، والَّذي نَفْسي بِيدِه لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنُون حتى تَحابُّوا، أَلا أدُلُّكم على مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ؟ افْشُوا السلامَ بينكم".

فالمؤمن الناصح لنفسه يحرسُها من آكِلِ الحسناتِ الحسد، ولا يسكنُ الحسدُ إلا قلبَ وضيعٍ، ولا يتمكنُ إلا من نفسِ خسيس، أما المؤمن فيردُّه إيمانه ويحجُزُه ورعه، وأما العاقل فيُثْنِيهِ عقلُهُ، وأمّا الشريف فيستحي لشرفِهِ. وقيل لبعضهم: ما بالُ فلانٍ يُبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

أخي المؤمن: إياك والحسد! فإنه آكل الحسنات، فيأكلها كما تأكل النار الحطب، وموبِقُ إبليسَ في أسحقِ الدركات، وهو أوَّلُ ذنبٍ عُصيَ اللهُ به، واعلم أنه لا يجتمع

في قلبٍ حسدٌ مع حبِّ الخيرِ للناس، فلا بدَّ لأحدهما أن يُزيحَ مكانَهُ أو بعضَهُ للآخر. فاغسِلْ قلبك من حوبات الذنوب، وطهّر صدرك من نجاسات الأحقاد والشحناء ولوْثات الحسد والبغضاء. ومن توكل على ربه وفوض إليه أمره أوشك أن يصل لتوفيقه ورضوانه بإذنه تعالى ورحمته، فليس مع الرحمن يأسٌ.

واعلم أنّ كثيرًا من نعرات الشقاق بين الناس فسببُها الخفيُّ حسدٌ كامنٌ في الضمائر، مستترٌ عن الظواهر، ولكن تشمّه الأرواح، وتستوحشه النفوس، ويُظهره الخذلان، ويُختم بسوء العاقبة والحرمان.

والحاسد معترض على قدر الله تعالى بحاله: قال الله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله). وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ألا لا تعادُوا نِعَمَ الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

أيا حاسدًا لي على نعمتي　　　أتدري على من أساتَ الأدب

أسأت على الله في حُكْمِهِ　　　لأنّك لم ترضَ لي ما وهب

والحاسد سقيم غَمِّهِ وقتيل هَمِّهِ، وذكروا عن الإمام الشافعي قوله: إن سمعتَ بسفينة تمشي على الرمل فصدّق، لكن إياك أن تصدّق أن حاسدًا يبيتُ قرير العين! وقال عمر رضي الله عنه: يكفيكَ من الحاسد أنه يغتمّ وقتَ سرورك. وقال الفقيه أبو الليثِ السَّمَرْقَندي رحمة الله تعالى علينا وعليه: تَصِلُ إلى الحاسد خمسُ عقوبات قبل أن يصل حسدُهُ إلى المحسود: غَمٌّ لا ينقطع، ومصيبةٌ لا يُؤجرُ عليها، ومذمّةٌ لا يُحمدُ عليها، وسَخَطُ الربِّ، ويُغلق عنه باب التوفيق. فالحاسد شقيٌّ مكلوم مهموم، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: لم أرَ ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد.

وقال الأصمعي: رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ عمرُه مئةً وعشرين سنة، فقلت له: ما أطولَ عُمُرَك، فقال: تركتُ الحسدَ فبقِيتُ. كما قيل: قاتلَ اللهُ الحسدَ ما أعدلَهَ، بدأَ بصاحبه فقتلَه، فالنارُ تأكلُ بعضَها إن لم تجد ما تأكلُه.

ولقد تأملت في الناس فرأيت أن الحسد يستتر خلف كثير مما يسمّونه أسباب كراهية، فَجُزْ ناديهم بطهارة قلبك وسلامة صدرك وحسن ظنك. وإن البرَّ يا صاحبي أسلافٌ.

والحسد والكبر خصلتا إبليس، ومطيّتاه لغزو قلوب العباد، ولو رُفع الحسدُ من الأرض؛ لأغلقت المحاكمُ أبوابَها. ومن الخطأ أن تطلب ألّا تُحسد فلكل نعمةٍ حاسد.

وقال ابن تيمية: "قد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم". وأرى العداوةَ لا أَرَى أسبابَها! لذلك فعند كلامك على الأقران – مهما كان حالهم وعلمهم ومقامهم – حاذر أن تلامس المقارنة بينهم، لأن هذا من شأنه أن يثير الحسد الكامن في قلوبهم. قال ابن تيمية: الحسد مرض غالب، لا يخلص منه إلا القليل من الناس!

ولقد صدق أبو الأسود الدؤلي إذ قال: "إذا أردت أن تعظم فمُت". فالميِّتُ تكبُرُ محاسنُه، وتُنسى معايبه، وتَدفِنُ الرحمةُ به الحسدَ عليه. وبالتغافل عن الحُساد يستريح الفؤاد.

فاحرص – رعاك الله – على سلامة صدرك وليكُنْ قلبُك طاهرًا من كل ما يُشينُهُ، فلا تحمِلْ على الناس لأجل دنيا.

وسلامة الصدر هي الطريق لحسن النصح للمسلمين، فمن أراد بلوغ مرتبة أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه فليبدأ بتفقّد سلامة صدره لهم. فالمؤمن قلبُه سليمٌ، وصدرُهُ

سليمٌ، ونصحُه للناس صافٍ مُتدفِّقٌ، يُحب لهم ما يُحب لنفسه من خيري الآخرة والدنيا.

وصدره سالم من سواد الحسد، وقَتَرَةِ الحِقد، ودخانِ الضغينة، فهو سليمٌ كقلب الطيرِ البريء، طهَّر قلبَه من نتنِ معصية، وقُبح خطيئةٍ وضِرَامِ بغضاءٍ لمسلم، ومثلُ هذا موعودٌ برحمة ربه وجزيل هباته. (جزاؤهم عند ربهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه).

وهل تعلم سرَّ استنارةِ الوجوه وانفساحِ الصدور: إنه القلب السليم! فتفقّد – رحمك الله – طهارةَ قلبك، وسلامةَ صدرك، فإنها من نفيسِ رأس مالك في الدار الآخرة، فنِعمّا طهارةُ القلبِ ذخيرةٌ بين يديك غدًا، وأكرِمْ بها قربانًا وزُلفى إلى مولاك أبدًا، أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم: (من أتى الله بقلب سليم).

فإن السعيد من ولد آدم هو من اتقى الله تعالى حق التقوى، وتحلى بسلامة الصدر وطهارة القلب، فالفائز عند الله غدًا هو من سَلِمَ صدره اليومَ. والمؤمنُ طاهرُ القلب كأبيه آدم عليه السلام، فإن خُدِعَ يومًا لطيبته فلهُ سلَفٌ صالحٌ بأبيه، الذي لم يكن يتصوّر أن هناك من سيقسم بالله كاذبًا (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين).

إنّ سلامةَ الصدرِ خلق شريف، يتحلّى به أهلُ المروءاتِ العظيمةِ، والنفوسِ الساميةِ والرغائبِ الكبرى في فلاح الدار الآخرة. وكان السلف رحمهم الله يحفظون لسالمِ الصدر هذه الخَصلةَ ويحمدونه عليها. قال اياسُ بنُ معاوية: كان أفضلُهُم عندَهم أسلَمُهُم صدورًا وأقلُّهُم غِيبة.

ومن كان قلبه سليمًا الحسدِ وصدرُهُ خاليًا من الحقدِ فقد تنعّم بشيء من نعيم الجنة، فمِنْ نفيسِ نعيمِهَا سلامةُ صدورِ سكانِها وراحتُهم، قال ربنا تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين).

وسلامة الصدر منحةٌ من الله تعالى ومحض فضل من لدنه، يختص به من أراد توفيقه من خواصِّ عباده. وسئل الإمام أحمد: ما التوفيق؟ فقال: ألّا يكلك الله إلى نفسك. فالقلبُ قُلَّبٌ مالم يعصمه مولاه، والصدر ضيّق ما لم يفسحه الله، والهم ملازم ما لم يرفعه الله. (إن في ذلك لآيات لأُولي النهى).

إنّ سالمَ الصدرِ على عباد الله يعيشُ بين الناسِ وجنّتُهُ في صدره، وبستانُه في قلبه، وسعادته وسكينته في روحه، ينظرُ إليهم بعيني قلبِه السليمِ، وصدرِهِ الناصحِ الناصعِ الواسعِ، فلا يرى شيئًا من نَكَدِهِم عليه يستحقُّ ذلك المقابلَ، فينقلبُ إليهم سليمَ الصدرِ، حسَنَ الظنِّ، مُحبًّا لهم كل خيرٍ يُطيقه، مُسديًا لهم كل فائدة يسطِيعها، لعِلمِه أنه لم يُخلق لحملِ همومِ دنيا وغمومِ فانية.

إنه فقط يحمل هم آخرته، ويسعى لتحصيل رضى مولاه، فإن صادَفَهُ ظلمٌ له أو أذىً؛ لم يتكدّرْ تَكَدُّرَ الهلوعين، ولم تَضِقْ نفسُهُ بأمرٍ هو عند الناسِ عظيمٌ وعندَ الأتقياءِ تافه.

فَمَا كُلُّ ما راجتْ عند الناس عظمَتُهُ عظيمًا، وما كلُّ ما تهالك الناس على تحصيله يستحق، ولا كلّ ما حَمَلَ الناسُ همَّ إزاحتِه واجتنابِه حقيقٌ بذلك، فالميزانُ هو ميزانُ الآخرة، وإنما المعوّلُ على رضى الرحمن. ومن كان معيارُهُ الآخرة؛ نَفَذَتْ بصيرتُه، واستقام عمله، ومن كان ميزانُهُ العاجلة؛ عمي قلبه وانتكس عمله. (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

والدنيا كَدرٌ وكَبَدٌ وعناء فلا تفرح بها ولا تحزن لها ولا تعطها فوق قدرها، ولن يُنالُ منها نعيمٌ إلا وفي طَرَفِهِ بؤسٌ، وما تحت الخضراءِ وفوقَ الغبراءِ بمستريحٍ (لقد خلقنا الإنسان في كبد).

إذا أنتَ لم تشربْ مِرَارًا على القَذَى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مَشَارِبُه

موقف المسلم من حاسديه وشانئيه

الحمد لله الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لجوده، لا إله إلا هو، وصلى الله على خير مبعوث بشرائعه وحدوده، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد: فإن السعيد من ولد آدم هو من اتقى الله تعالى حق التقوى، وتحلى بسلامة الصدر وطهارة القلب، فالفائز عند الله غدًا هو من سلم صدره اليوم.

أخي المؤمن: إياك والحسد! فإنه آكل الحسنات، وموبِقُ إبليسَ في أسحق الدركات، فاغسل قلبك من حوبات الذنوب وطهر صدرك من نجاسات الأحقاد والشحناء والحسد والبغضاء. واعلم أن من توكل على ربه وفوض إليه أمره أوشك أن يصل بإذنه ورحمته.

ومن ابتلي بخوفٍ من حسد فعليه بالتالي: قال ابن القيم رحمه الله: "ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرةِ أسباب:

أحدها: التعوذُ بالله تعالى من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله سمع الله لمن حمده.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظُه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى اللهُ حفظَه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك" رواه الترمذي بسند صحيح. فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممّن يخاف وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدّث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصِر على حاسده وعدوّه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل

تأخيره وبغيَه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغيٍّ عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه.

ولو رأي المبغي عليه ذلك لسرّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولًا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بُغى عليه وهو صابر؟! وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًّا.

السبب الرابع: التوكلُ على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافية ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفّى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

والتوكل من أجل مقامات العارفين وكلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد، وعلى قدر إيمان العبد يكون توكله.

السبب الخامس: فراغُ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوُّه ليمسكه ويؤذيه فلم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه فلم يقدر عليه عدوه، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به؛ بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلقّاه إلا أصحابُ النفوس الشريفة والهمم العالية، والكيّس الفطن بذلك يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، لأنه يرى أن من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوّه وتعلّق روحه به، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت به، وعلمت أن ضمانَه حق ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله ولا أصدقَ منه قيلاً، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبتُ وأدومُ وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها. ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس.

السبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته ومرضاته والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، فتدب فيها دبيب الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرَها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابّ الرب والتقرب إليه وتملقه وترضّيه واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصّن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه، وذلك (فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره!

وفي الدعاء المشهور: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لم لا أعلم" صححه الألباني، فما يحتاج العبدُ إلى الاستغفار منه مما لا يعلمُه أضعافَ أضعافِ ما يعلمُه، فما سُلّط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له: قف حتى أدخلَ البيت ثم أخرجَ إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عُوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وأوذي وتَسَلّط عليه خصومُه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامةُ سعادته أن يعكس فكرَه ونظره على نفسه وذنوبِه وعيوبه فيشتغلَ بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبّر ما نزل به، بل يتولى هو التوبةَ وإصلاحَ عيوبِه، واللهُ يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد.

فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيقَ والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كلُّ أحد يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن من أسباب السلامة من كيد الحاسدين: الصدقةُ والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنّة واقية وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

والحاسد والعائن لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفيء ناره - لا أطفأها الله - فما حرسَ العبدُ نعمةَ الله تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عرّضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة، وهو بابٌ إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه وإن تأخرت مدة الظفر والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقّها عليها ولا يوفق له إلا من عظُم حظُّه من الله؛ وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عز وجل: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقال: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)

وتأمل حال النبي الذي حكى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" متفق عليه، كيف جمع في هذه الكلمات أربعَ مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه: أحدُها عفوُه عنهم، والثاني استغفارُه لهم، الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: (اغفر لقومي) كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به:

اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخافُ عواقبَها وترجوه أن يعفوَ عنها ويغفرَها لك ويهبَها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرَك أن تعاملَ به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصوّر هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى ما أساء إليه هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيّته الخاصة كما قال النبي للذي شكى إليه قرابته وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال: "لا يزال معك من الله ظهيرٌ ما دمت على ذلك" رواه مسلم.

هذا مع ما يتعجلَه من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع

المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه إقطاعًا ولا شكرًا.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة منفعة للعبد عاجلةً وآجلة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريدُ التوحيد والترحّلُ بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلاتٌ بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضرّ ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك" فإذا جرد العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوّه أهونَ عليه من أن يخافَه مع الله تعالى، بل يُفردُ الله بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالًا به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده" (١).

٢١/ ٧/ ١٤٣٧

....

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٦٣ – ٤٦٨) باختصار.

ظلامُ الظلمِ

إذا كانت البهائم موعودات بالعدالة فما بالك بالبشر؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء". رواه مسلم والجلحاء: التي لا قرن لها.

والظالم مأخوذ تالف مهما استطالت به أمنيته أو امتد ببغيه حبل غروره فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته"، ثم قرأ: { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } متفق عليه.

اتقوا الظُّلْم

واعجبًا للظالم كيف يهتني بنوم وهو يعلم نصر الله للمظلوم.

تنامُ عينُك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

كيف يطيب له نَفَسٌ وهو يسمع قول الجبار جل جلاله: (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما)

أَمَا وَاَللَّهِ إنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ   وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

إلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي   وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

سَتَعْلَمُ فِي الْمَعَادِ إذا الْتَقَيْنَا   غَدًا عِنْدَ الْمَلِيكِ مَنْ الظَّلُومُ

الظلم ظلمة في الدنيا وظلمات في الآخرة..

روى أحمد بسند صحيح أن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ"

لا تستعجل عقوبةَ الظالم فهي محيطة به. روى الشيخان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((إن الله ليملي للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته)) ، ثم قرأ : { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } [هود : ١٠٢]

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِذَا مَكَّنَك اللَّهُ الْقُدْرَةَ مِنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ فَاذْكُرْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْك ، وَاعْلَمْ أَنَّك لَا تَفْعَلُ بِهِمْ أَمْرًا مِنْ الظُّلْمِ إلَّا كَانَ زَائِلاً عَنْهُمْ – أيْ بِمَوْتِهِمْ – بَاقِيًا عَلَيْك –أَيْ عَارُهُ وَنَارُهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ آخِذٌ لِلْمَظْلُوم حَقَّهُ مِنْ الظَّالِمِ، وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَظْلِمَ مَنْ لَا يَنْتَصِرُ عَلَيْك إِلَّا بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ } .

فكيف رأيت الحقّ قرّ قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه

وتذكر حديث المفلس واعلم أن ميزان الآخرة منضبط على معيار واحد يميّز العدل من الظلم (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) غافر ١٧، عدل ينجي ويسعد، وظلم في الجحيم يركس { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ }

ان معول الظلم ليهدم جبال الحسنات، وكلما اشتدت المظلمة اشتد الهدم.

ياصاحِ: ليت الحلالَ سلم، فكيف الحرام؟ كان لبّان يخلُط اللبن بالماء، فجاء سيل فأهلك الغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطراتُ فصارت سيلا. ولسان الجزاء يناديه " يداك أوكتا وفوك نفخ " .

كم بكت في تنعّم الظالمِ عينُ أرملة، واحترقت كبد يتيم؟ (وَلَتعلُمَنّ نَبأَهُ بَعدَ حين) واعجبا من الظّلمةِ كيف ينسون طي الأيام سالف الجبابرة، وما بلغوا معشار ما أوتوا، أما شاهدوا مآلهم؟ (فَكُلاً أَخَذنا بِذَنبِهِ) أما رحلوا بالندم؟ (فَما بَكَت عَلَيهِم السَماءُ والأرض).

ويحك، لا تحتقر دعاء المظلوم، فشَرار نار قلبه محمول بريح دعائه إلى سقف بيت الظالم، نباله تصيب، وبوعد الله لا تخيب. (وعزتي وجلالي لأَنصُرَنّكَ وَلَو بَعدَ حين).

ويامن ظُلمت: اصْبِرْ عَلَى الظُّلْمِ وَلَا تَنْتَصِرْ، فَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى الظَّالِمِ، وَكِلْ إلَى اللَّهِ ظَلُومًا فَمَا رَبِّي عَنْ الظَّالِمِ بِالنَّائِمِ.. وَمَا يَدٌ إلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا.

شتان من بات وقلوب العباد عند ربها تدعوا له وتثني عليه، وبين من دموعهم ترفَع شكايتها بالدعاء عليه! وفي الصحيحين: "واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّها لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ"

ربما تنام وعشرات الدعوات ترفع لك، من فقير أعنته، أو جائعٍ أطعمته، أو حزين أسعدته، أو مكروب نفست عنه.. وعند الله في ذاك الجزاءُ.

المِراءُ

المراء داء الفضلاء، فحتى أهل العلم والفضل لم يسلموا من وضر تلك الإحنةِ النفسانية – ومرجعها الحسد – فترى في ردود بعضهم على بعض – مع أهميتها – انتصار ظاهر للنفس وهضم قبيح لحق أخيه وإشاعة لعيبه الذي لا علاقة له بما رُدَّ عليه فيه، وتزَيّد وتكبّر ورتعُ عرضٍ حرام. ولو راجع الفقيه نفسه لرأى أنه منتصر لهواه لا لهداه، والله الحافظ الهادي المستعان.

ومن أكثر ما يفرّق بين الإخوان المماراة، فيقول الأول شيئًا فيخالفه صاحبه، فيدلي كلاًّ بحجج تدعم مذهبه ورأيه، ثم يتعصب له وترتفع الأصوات، ثم يتحول محور الحديث لنقد ذات الشخص لا لقوله ورأيه، ثم تُستحضر المواقف البعيدة والقريبة، مع تلوينها بسوء الظنون وإظهارها بأقسى الألفاظ وأوحش التشبيهات، فتكون النهاية المؤسفة الفرقة والقطيعة والتسبب في عدم رفع الأعمال مع حرمان بركة الاجتماع ورحمته.

قال مالك: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال الآجري: عند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة والوحشة بعد الأنس.

وأعظم من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم ببيت في رَبَض الجَنَّة لمن ترك المِراء وإن كان مُحِقّا، وببيت في وَسَط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسنَ خُلُقَهُ". والمراء: هو الجدال. والربض: هو ما حول المدينة من العمارة ونحوها.

التعصّب لغير الحق

التعصب لغير الحق آفة سوداء في ثوب المؤمن، وهي تابعة للهوى، ودالة على ضعف التسليم لله ووهن الإسلام في القلب، فالإسلام عقد على الاستسلام لله واتباع دينه جملة وتفصيلاً، وفي الساعة التي يولّي المرء ظهره للحق معنقًا في طِوَل باطله فقد أطلق بعض ما عقَده من شعب الإيمان، وبحسب إطلاقه وحنثه وخُلفِه يكون بعده وخذلانه وخيبته.

حبُّ الرئاسة

حب الرئاسة من فروع حب الدنيا، وهو آخر ما يسقط من رؤوس الصدّيقين، فترى الرجل من أزهد الناس في المال والمتاع حتى إذا هزهزه منصب أو رئاسة تهالك على تحصيله ونسي ما كان يوعظ به، والله المستعان.

ولحبها علامات: قال شيخ الإسلام: "وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقا.

والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويبغض الكذب والظلم".

المزاح

المزاح لا بأس به على الندرة أو في المرّة تلو المرّة، بحيث لا يكون طبعًا معتادًا، ولا يكون كذبًا ولا مشتملاً على محرم ولا أذى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يفاكه أصحابه ويداعبهم ويمازحهم لكنه لا يقول إلا حقًّا وصدقًا وبإدخال السرور والفرح بلا أذية.

أما إن طغى المزاح على المرء بحيث لا يكاد يخلو مجلسه من دعابات وفكاهات حتى يعرف بها فليس هذا بجيد، ويزيد الأمر إن استمرأ إضحاك الناس على الناس فهناك تُبذر بذور الضغائن السامة للإخوّة والماحقة للألفة والاجتماع، وكم من كلمة أراد بها صاحبها المفاكهة والممازحة نتجت حربًا وقتلاً، والعاقل من اتعظ بغيره.

وبالجملة فالمزاح لا بد أن يكون بقدر، وأن تحفظ له آدابه وأوقاته وأشخاصه، فليس كل وقت يصلح له ولا كل شخص يتقّبله ولا كل حال يكون مناسبًا له. وبالله التوفيق.

وصيةُ حبيبٍ

صح عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ ﴿ يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ ﴾. ثم قَالَ ﴿ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أن تَقُول اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ﴾. والحديث مسلسل بالوصية

ألا ما أعظمه من موصٍ وما أشرفها من وصية. حقيق بكل مؤمن أن يحفظها ويلزمها.

قال شيخ الإسلام: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤالُ العونِ على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في: "إياك نعبد وإياك نستعين" فالعون على الطاعة هو جماع الخير.

وقال عنه ابن القيم: كان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله -أي يلحُّ على الله بها ويكررها- وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسورُ من أسره هواه.

فرطّب قلبك ولسانك بهذا الدعاء الجامع وخاصة في صلاتك في السجود وقبل السلام.

إن مبنى الدين على قاعدتين: الذكرِ والشكر، قال تعالى: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون" وليس المراد بالذكر مجردُ الذكر باللسان بل بالقلب والجوارح، فالدين كله ذكر. وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقربُ اليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزمٌ لمعرفته، وشكرُه متضمن لطاعته، وهذان هما الغايةُ التي خَلَق لأجلها الجنّ والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب وأرسل الرسل. فحق الله أن يذكرَ فلا

يُنسى ويشكرُ فلا يُكفر، وهو سبحانه ذاكرٌ لمن ذكره شاكرٌ لمن شكره. والذكرُ رأس الشكر، وإذا ذكر العبد نعمة الله تعالى عليه هاج من قلبه هائج الشكر، فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح.

وبالجملة فأنفعُ الدعاء طلبُ العون على مرضات الله، وأفضلُ المواهب إسعافُه بهذا المطلوب، وجميعُ الأدعية المأثورة مدارُها على هذا، وعلى دفعِ ما يضادِّه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

شأن الرَّحِم

كان النضرُ بنُ الحارث العبدري شديدَ العداوة للإسلام فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر فرثته أخته قُتَيلة، ومما قالته:

يا راكبًا إن الأثيل مظِنّة من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ

أَمُحَمَدٌ يَا خَيْرَ ضَنْءٍ كَرِيمَةٍ فِي قومها، والفحل فحلٌ مُعرِقُ

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَربَّمَا مَنَّ الفتَى، وهُوَ المَغيظُ المُحنَقُ

فالنضْرُ أقربُ مَنْ أَسرْتَ قَرَابَةً وَأَحقُّهُم إن كان عِتقٌ يُعتقُ

ظَلَتْ سُيُوفُ بني أَبيهِ تنوشُهُ لله أَرحَام هُنَاكَ تُشقَّقُ

قالوا: فرقَّ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دَمعت عيناهُ، وقال: " يا أبا بكر لو سمعتُ شعرها ما قتلتُ أخاها" أي لقبل شفاعتها فيه. نعم فلا يهتز لصدق المشاعر سوى معادنِ الأحرار، وسيدهُم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هناك في داخل النفس الإنسانية ثمّ رغبةٌ في الخصوصية، وتأمل نفسك لو جلست في مكان عام، ثم جلس بقربك شخص لا تعرفه حتى كاد أن يلزقَ بك، فما ستحسّ به هو رغبتُك في الابتعاد عنه قليلاً لتتنفس الخصوصية.

وبما أن الإنسان لا مفرّ له من خُلطة البشر والاحتكاكِ بهم فمن الطبيعي أن يكون بينه وبين بعضهم نفرة ومشاحنة وربما قطيعة، لذلك شدّد الله الأمر في كتابه بوصل ما أمر به أن يوصل كحفظِ حق الجار وصلة الرحم ونحوِ ذلك.

ومن نفيس وصايا زينِ العابدين رحمه الله تعالى: يا بني لا تصحبنَّ قاطعَ رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع. "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله"

ولكلِّ من كانت بينه وبين رحمه قطيعة: تذكّر ليالي الجُمع.. قال رسول الهدى صلى الله عليه وسلم: " إن أعمالَ بني آدمَ تُعرضُ كلَّ خميسٍ ليلةَ الجمعة، فلا يقبلُ عملُ قاطعِ رحم " رواه أحمد بسند جيد. لذا فانتبه ألّا تكون قاطعًا فتُقطع! فمن وصل وُصِلَ ومن قطعَ قُطع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتْ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ. فَذَاكِ" متفق عليه. وفي البخاري: "لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رحمٍ" وفي الصحيحين في حديث الصراط: "وترسل الأمانةُ والرحمُ فتقومان جَنْبَتَي الصراط يميناً وشمالاً".

أُخيّ: ألا تريدُ عمرًا طويلاً ورزقًا دارًّا؟ إن وصلُكَ لِرحمك مُؤدٍّ لذاك: "من أحب أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه" متفق عليه.

فإن قلتَ: كيف أصلُ رحمي وهم لا يستحقون؟ بل ولا سلامة منهم إلا بالبعد عنهم! قلتُ: بل الوصلُ يسير والأمر هيّنٌ بحمد الله، ولكن بشرط أن تفهم سرَّ سهولته، ألا وهو يقينُك أنكَ تتعاملُ مع الله لا معهم، وأنك تنتظر الأجر والرضى منه لا منهم، وتذكّر حديثين:

في البخاري: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا" وفي مسلم أن رجلا قال: ﴿يا رسولَ الله، إن لي قرابةً أصلِهُم ويقطعونني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئُون إِليَّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليَّ؟ قال: لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهُم الملَّ، -وهو الرمادُ الحار - ولن يزالُ معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك﴾. فهل تريد أجمل من هذا.

أخي: اجعل صلةَ أرحامك من صلبِ اهتماماتك وأولوياتك، واجعل لها نفيس وقتك، والأمر يسهُل بالتعوّد.

وتذكّر أن الجنة تريد منك مهرًا من الصالحات أم هل تريدُها مجّانًا؟!

(وقل رب ارحمهما)

قال صلى الله عليه وسلم عن أويسٍ القَرَني: "له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبره" فبرُّه بأمه جعله مستجاب الدعوة.

وبرُّ الوالدين من أعظم أسباب الغفران.. قال الإمام أحمد: بِرُّ الوالدين كفارةٌ للكبائر.

وفي المسند أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، إني أصبتُ ذنباً عظيماً،

-أي من الكبائر- فهل لي من توبة؟ قالَ: "هل لك مِنْ أمٍّ؟" قالَ: لا، قالَ: "فهل لك من خالةٍ؟" قال: نعم، قال: "فبِرَّها" قلتُ: لأن الخالة هي بقيّة الأم.

وقال رجل لعمر: قتلتُ نفساً،- وهو اعظم ذنب بعد الشرك - قال: أمُّك حية؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم، قال: فبِرَّه وأحسن إليه. ثم قال عمر: لو كانت أمُّه حيَّةً فبرَّها وأحسن إليها، رجوتُ أنْ لا تَطعَمهُ النارُ أبداً. وعن ابن عباس بمعناه أيضاً.

ألم تعلم أن برّ والديك أحبّ إلى الله من الجهاد، ففِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: "قُلْت لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إلَى اللَّهِ؟ قَالَ: "الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا" قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ" قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ".

وفي حديث آخر لم يذكرِ الوالدين فقال العلماء لأنه لَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَالِدَانِ. فاحمد الله الذي أعطاك ما حرم منه غيرَك.

ألا ما أعظم حقَّ الوالدين. ويكفي أن الله تعالى قد قُرِنَ حَقّهما بحقِّه: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) "ومن أدرك أبويه أو أحدَهما فلم يدخلاهُ الجنةَ فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين"

وَلِمُسْلِمٌ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أُبَايِعُك عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ لِيَبْتَغِيَ الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: "فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْك أَحَدٌ حَيٌّ"؟ قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلاَهُمَا حَيٌّ. قَالَ: "فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ"؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْك فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا". الله أكبر ولله الحمد. وقال: لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ".

وعند أحمدَ بسند صحيح أن رجلاً قال: إني جئت لأبايعُك وتركتُ أبويّ يبكيان قال: "فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتَهما"

والعجب أنّ لهما حقًّا وإن كانا مشركين فكيف بالمؤمنَين الحنيفَين. يالَله ألهذا الحدّ وصل أمرُ البِرّ.

وتأمّل فقه مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ في قوله: بِتُّ أَغْمِزُ رِجْلَيْ أُمِّي، وَبَاتَ عَمِّي يُصَلِّي لَيْلَتَهُ، فَمَا سَرَّنِي لَيْلَتَهُ بِلَيْلَتِي. وقيل للحسن: إني أتعلم القرأن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: "عشاء مع أمك تُقِرُّ به عينَها، أحب إلي من حجة تحجها تطوعاً".

ولمن رحل والده: ادعُ له واستغفر له وصِل أصحابه.. مرّ رجل من الأعراب بابن عمر فسلّم عليه عبدُ الله، وحملَه على حمار كان يركبُه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فسُئل فقال: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أبرَّ البرِ صلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه" رواه مسلم.

فبرهما باب للجنة وعقوقُهما حفرةٌ إلى النار قال صلى الله عليه وسلم: "ملعونٌ من عقَّ والديه" رواه أحمد.

ولمن ثقُل عليه البر أقولُ: تَطْلُبُ الْجَنَّةَ بِزَعْمِك وَهِيَ تَحْتَ أَقْدَامِ أُمِّك، حَمَلَتْك فِي بَطْنِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ كَأَنَّهَا تِسْعُ حِجَجٍ، وَكَابَدَتْ عِنْدَ وَضْعِك مَا يُذِيبُ الْمُهَجَ، وَأَرْضَعَتْك مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا، وَأَطَارَتْ لِأَجْلِك وَسَنًا، وَغَسَلَتْ بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى

وَآثَرَتْك عَلَى نَفْسِهَا بِالْغِذَاءِ، وَلَوْ خُيِّرَتْ بَيْنَ حَيَاتِك وَمَوْتِهَا لَآثَرَتْ حَيَاتَك بِأَعْلَى صَوْتِهَا.

هَذَا وَكَمْ عَامَلْتهَا بِسُوءِ الْخُلُقِ مِرَارًا فَدَعَتْ لَك بِالتَّوْفِيقِ سِرًّا وَجِهَارًا، فَلَمَّا احْتَاجَتْ عِنْدَ الْكِبَرِ إلَيْك جعَلْتهَا مِنْ أَهْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَيْك، وَقَدَّمْت عَلَيْهَا أَهْلَك وَأَوْلَادَك فِي الْإِحْسَانِ وَقَابَلْت أَيَادِيهَا بِالنِّسْيَانِ، وَصَعُبَ لَدَيْك أَمْرُهَا وَهُوَ يَسِيرٌ، وَطَالَ عَلَيْك عُمُرُهَا وَهُوَ قَصِيرٌ، وَهَجَرْتهَا وَمَا لَهَا سِوَاك نَصِيرٌ.

ألا تخشَ أن تُعَاقَبُ فِي دُنْيَاك بِعُقُوقِ البنات والْبَنِينَ وَتخزى فِي أُخْرَاك بِالْبُعْدِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يا هذا تذكر الوعيد (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ)

لِأُمِّك حَقٌّ لَوْ عَلِمْت كَبِيرُ ... كَثِيرُك يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ

فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثِقَلِك تَشْتَكِي ... لَهَا مِنْ جَوَاهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ

وَفِي الْوَضْعِ لَوْ تَدْرِي عَلَيْهَا مَشَقَّةٌ ... فَمِنْ غُصَصٍ مِنْهَا الْفُؤَادُ يَطِيرُ

فَآهٍ لِذِي عَقْلٍ وَيَتْبَعُ الْهَوَى ... وَآهٍ لِأَعْمَى الْقَلْبِ وَهُوَ بَصِيرُ

فَدُونَك فَارْغَبْ فِي عَمِيمِ دُعَائِهَا ... فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُو إلَيْهِ فَقِيرُ

لا تجعل أمَّك مستودعًا لأحزانك، فأخبرها بما يسرّك لا ما ساءك فحزنها عليك أضعافُ أضعافِ حزنِك على نفسك.. فارحمها رحمك الله.

واعلم أن بر الوالدين ليس في طاعتهما فقط، بل البر الحقيقي هو فنُّ إدخالِ السرور عليهما بأي شيء كان.

وتذكّر أن غيرك قد حُرم من نعيم لقياهما، بموت أو غربة أو غيرها وودّ لو دفع سنة من عمره بالجلوس معهما ساعة من ليل أو نهار. فاعرف – يا رعاك الله – قدر نعمة الله عليك بوالديك.

وإني موصيك ببرِّهما برًّا خاصًّا لا يسبِقُكَ إليه سابق ولا يلحَقُكَ فيه لاحق.. دلّلهما وأظهر لهما بصدق حبَّك وشوقَك ولهفتك.. ولتكن بَهجة لقلبيهما وسرورًا وسعادة وأمنًا وكفاية.

لا تحزنهما بالانشغال عنهما بجوال أو غيره. أشركهما في كل دعوة صالحة، بل خصَّهما دونَك بدعَوات، ولا تنس في كل سجود أن تضرع لربك: رب ارحمهما كما ربّياني صغيرًا.

وثق أنك مهما فعلت وأحببت فلن تستطيعَ أن تصل لمستوى حبهما لك.. فحب الوالد لولده هو من النوع الذي لا يقاس ولا يوزن لأنه لا حدّ له.

وسيأتيك يومٌ لن يبق من والديك سوى الذكريات، فافعل اليوم ما تريد أن تتذكّره غدًا.

وإذا أردت أن تعرف قدر الوالدين فاسأل من فقدهما!

الابتلاءُ بالأسقامِ

الحمد لله حمدًا يليق بجميل فضله وعميم جوده وسابغ إحسانه، والصلاة والسلام والبركة على خيرته من خلقه ومصطفاه من عباده وخليله وكليمه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، أما بعد:

فليس للمؤمنِ مندوحةٌ عن التّفقُّه في سنن الابتلاء، وأنّ الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، وأنّ أمرَ المؤمن كلَّه خير، فالحكيم سبحانه يبتلي عباده حتى يستخلص خُلاصتهم لخُلاصة كرامته. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". وهذا صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله تعالى. وكم من عبوديةٍ يحبها الله غرسها وأصلحها في قلب عبده بسبب مصيبة في دنياه. وحسبُكَ داءً أن تَصِحّ وتَسْلما.

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له". فعليك براحلتَي الشكر والصبر -باركك الله تعالى-.

إن الحياةُ كلُها ابتلاء لقياس صلاحية الإنسان لسكنى الجنة أم لا، فالجنة هي لأحباب الله المؤمنين الصادقين الصابرين، فإذا ضعف أحدهم بخطيئة في دار الامتحان؛ ابتلاه ربه بتكديرٍ يرفأُ شقّ ثوبِ إيمانه، وبمصيبةٍ ترفعُ درجته، وتكفّر خطيئته، وتُنَبِّه قلبَه من غفلته. ففي كل عثرة في حياتك، ومنعطفٍ من عمرك، وخيبةِ أملٍ فيمن حولك؛ اهتف بنفسك: هذا ابتلاءٌ من ربك: (لننظر كيف

تعملون) فتأملها جيدًا، فإن في طيّ المحنِ مِنحًا، وأتونُ الكَيْرِ يَفْرُزُ صِدقَ اللجينِ من زيف النحاس، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وكل أمرٍ قرّبك من ربك فهو خير، وكما قيل: يا بن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. فتفاءل بالله وأحسن الظن به، واعلم أنه أشدّ من المصيبة انتظارها. وكثيرًا ما تكون النهايةُ عبارةً عن بداية جديدة، فالمتفائلُ يجعلها دَرَجًا لمجده، والمتشائم يُصيِّرُها قبرًا لهِمّته. ومن أجمل ما كتبه ابن القيم رحمه الله عبارة تستحق الوقوف الطويل في محراب تأملها: "يا بن آدم، كلٌّ يريدك لنفسه، إلا الله، فإنه يريدك لنفسك".

وكم لله من لُطْفٍ خفيٍّ   يَدِقّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ

وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ   فَفَرَّجَ كُرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ

وكم أمرٍ تساءُ به صباحًا   وَتَأْتِيْكَ المَسَرَّةُ بالعَشِيِّ

إذا ضاقت بك الأحوال يومًا   فَثِقْ بالواحِدِ الفَرْدِ العَلِيِّ

ومن أنواع الابتلاء الأمراض والأسقام التي يقدرها الله على من رحم من عباده، فالمريضُ المؤمنُ المدنف، ساكنُ النفس، لاهجٌ بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكنّ غير الواثقين بربهم لا يعلمون حقائق كنوز الرضى وذخائرَ الثقة. إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفًا للمرضيِّ عنهم: (العابدون الحامدون السائحون) ويتدبر قول ربه: (والله يحب الصابرين) فتهفو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة. وكم من مريض أو مكروب أو مضرور يفتح الله له بابًا لمناجاته والأنس به حال كربه ومرضه، حتى إذا زال كرْبُه؛ فَقَدَ معه كثيرًا من موارد ذلك الأنس والسرور والمناجاة.

والمؤمن يرى الأمراض نعمًا لا عذابًا، هو لا يطلبُها بل يسألُ ربّه العافية، لكن إن نزلت به صبر ورضي وشكر. فأسقامُ الجسد على ثلاثة أنحاء:

فمنها العارض ومن أعظمه الحُمّى -أمُّ مِلْدَمٍ -فهي تدخل كل عضو وتفورُ في كل مفصل، فهي كفارة طيّبة للخطيئات.

الثاني: أمراضٌ ملازمة تحل معه وترتحل، لا تفارقه في فراشه ولا طعامه ولا لذته ولا عبادته كالسكَر والضغط والعاهة ونحو ذلك من الأسقام التي يسمُّونها: الدائمة، فهي نِعْمَ الصَّاحبُ والرفيقُ في الطريق للآخرة، فالجسدُ يتأقلمُ ويتعايش معها على طول السنين، فلا يتأذى بها كشِدَة العارض النازل، مع ذلك فهي تنظّفُ صحيفته وتُنقّيها على مرّ الأيام من الذنوب، حتى إذا وافى العبدُ ربَّه إذْ الكثيرُ من خطاياه قد زالت بسبب تلك الأسقام في دنياه.

والثالث: الأسقام المُفضيةُ للوفاة بإذن الله تعالى، فمنها ما هو شهادةٌ لصاحبها، ومنها دون ذلك، وكلها خير ونعمة لمن احتسب الأجر ورضي بالله ربًّا مدبِرًا، وحمَدَهُ على كل حال، وشكره على كل فضل. وبالجملة: فالمؤمن يعلم أنّ المصيبة كفارة للسيئات ورفعة للدرجات، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وقال إبراهيم المقري وقد رفسته بغلته فكسرت رجله: "لولا مصائب الدنيا؛ قدمنا على الله مفاليس".

والمرضُ لا يُقرّبُ الأجلَ، ولا الصحةُ تدفعُهُ، إنما هي أسبابٌ مجرّدة، أما المُسَبِّبُ الخَلاّقُ الذي يُنزل الداء ويرفعُهُ ويُحيي ويُميت فهو الله وحده، فالمؤمن يبذل السبب وقلبه معلّق بالله تعالى. حتى من أصيب بمرض خطير كالسرطان فهو بين إحدى الحسنيين؛ شفاء أو شهادة بإذن الله، لأنّه إن لم يدخل فيه بالنص كالطاعون والمبطون ومريض ذات الجنب؛ فهو داخل بالمعنى للعلل التي ذكرها العلماء في توصيفهم لأمراض الشهادة.

ومن رحمة الله بعبده أن تأتيه رسلُ ربه كالأمراض الخطيرة، فتُلمحُ له بقرب رحيله إليه، فيستعد للقاء الله ويشتاق بتوبة وعمل، ويتخفّف من كدر الدنيا لراحة

الآخرة، وينفض عن ظهره أوزار الخطايا ومظالم العباد، إنما الفاجعة بموت الفجأة للمفرطين الغافلين، والله المستعان.

إن المؤمن يفرح بالله ويرضى بقضائه، وإن السعيدَ من ولد آدم هو من كان عظيمَ الإيمان راسخَ اليقين رخيَّ البال بالقناعة، وهي الحياة الطيبة، والمؤمن ينتظر من الله أجر صبره وحمده، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس، يخرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة من الخَصاصة -أي من الجوع، وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين. فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم، فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة". رواه الترمذي وصححه.

والله تبارك وتعالى يبتلي أولياءه حتى إذا ضاقت أمورهم فرّجها برحمته، وإن تعسّرت أحوالهم يسّرها بفضله، وإن أظلمت نفوسهم نوّرها بهُداه، وإن انقطعت سُبُلهم وصلها بإحسانه، فهو طبيب عباده يبتليهم ليرفع درجتهم ويطهّرهم، وفرجه لهم عند حاجتهم أقرب إليهم من رمش عيونهم، فليس مع الله ضيعة. وغمسةٌ في الجنة تُنسي شقاء الدنيا كله!

يا صاحب الهم إنّ الهم منفرج   أبشر بخير فإن الفارج الله

وإذا بُليت فثق بالله وارض به   إن الذي يكشف البلوى هو الله

والله ما لك غير الله من أحد   فحسبك الله في كل لك الله

فالبلاء إن نزل معه الصبر والرضا فهو رحمة ونعمة، فإن قابله بجزع وتسخّطٍ فهو عذاب إلى عذاب. فكلُّ مصيبة ليست في الدين فهي نعمة في الحقيقة.

وأولياء الله مهما اشتدت بهم البلايا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وبالجملة؛ فالمبتلى في دنياه إن رُزِق الثقة فلا عليه ما يفوتُه من الحطام، ولْيعلم أنّ الفرج أقرب

له من مارِنِ أنفه، وكفى بالإيمان حظًّا، "ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم".

فاشدُد يديك بحبل الله معتصمًا   فإنّه الركن إن خانتك أركانُ

وليس على المؤمن أن يتمنى البلاء، بل عليه أن يسألَ الله العافية، فإن نزل بلاء صَبَرَ ورضيَ وحمد وشكر، فهو متوكل على ربه وراضٍ عنه قبل وقوع البلاء وأثنائه وبعد زواله، لا تزيده الابتلاءاتُ إلا يقينًا، ولا المصيباتُ إلا صبرًا، ولا المسرات إلا شكرًا وزُهدًا، وهو على الدوام يسأل ربَّه عونَهُ وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف وعده بإجابة من دعاه. وفي دعائكَ ربّك: لا تنس: اليقين.

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضى وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالنيّة قُلّبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزُب، والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودِعْ نفسَك ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

ولمّا بثّ الله الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكرٍ صابر حامد شاكر تائب مستغفر. واعلم أنّ للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضى بالله تعالى، فاغمِسْ كلَّ همّ لك في بحر الرضى بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُهُ أن يُعذِّب، ولكن يَبتلي ليُهَذّب.

دعِ المقاديرَ تجري في أعَنّتِها   ولا تبيتنّ إلا خالي البالِ

ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهتها   يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

واعلم أنّ قدرَك إنْ لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحقُّ وما سواهُ باطل، قال سبحانه: (وأن إلى ربك المنتهى) وقال: (وأن إلى ربك الرجعى) فمهما سلكتَ

من دروب الحياة خيرًا أو شرًّا، سرورًا أو حزنًا، صحة أو سقمًا، شوقًا أو خوفًا؛ فإليه وحدهُ المنتهى.

وبعد؛ فاتق الله يا عبد الله، واحمد الله تعالى واشكره كثيرًا على أن فضّلك على غيرك تفضيلاً بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكربته، فلا يفزع للصلاة والدعاء، بل لسفر أو لهو أو مسكر (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

ويامن ابتلاك الله بسقم في جسدك عليك بالتالي:

أولًا: الرضى بمُرّ القضاء، فمن آمن بالله ربًّا؛ رضي بمقاديره عليه، وتيقّنَ أنّه يتقلّب في قدرته وحكمته ورحمته ولطفه، وأنّه منتظر للفرجِ في الدنيا وللأجر في الآخرة.

ثانيًا: الإلحاحُ على الله تعالى في الدعاء، فهو من أنزل الداءَ وهو وحده القادر على رفعه. قال تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله). والتوحيد والتوكّل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أي كافيه عما سواه.

ثالثًا: الرقيةُ الشرعية بالقرآن وبما صح من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى عن القرآن: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) فكيف بلحم ودم وروح. واعلم أن القرآن شفاءٌ لكل مرض بلا استثناء: جسديًّا كالحمى والسرطان أو روحيّا كالعين والسحر. ولكن لا بد أن تتيقّن من أنّ القرآن شفاء، لا أن تأخذه على سبيل التجربة، والله تعالى قد قال في كتابه: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فقد وصفه بالشفاء المُوجِب للعافية بإذن الله، ولم يصفه بالدواء الذي قد ينفع وقد لا ينفع، فالقرآن كله شفاء، وبعضُ آياته أبلغُ في الشفاء كالفاتحةِ وآيةِ الكرسي والمعوِّذات.

والأفضلُ والأكمل أن يرقيَ المريضُ نفسَه فهي أبلغ وأقوى وأخلص. ومن صفات السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب أنهم "لا يسترقون". أي لا يطلبون الرقية من غيرهم بل يرقون أنفسهم.

رابعًا: على المؤمن أن يأخذ بأسباب الشفاء من الأدوية المباحة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: "عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام).

وفي الأمراض الوبائية ينبغي اتخاذ الأسباب التي أمر بها الشرع، فمن كان في البلد المطعون فلا يخرج منه فرارا منه، ومن كان خارجَه فلا يدخله، مع التوكل التام على الله تعالى في كل الأمور.

ولا بد للمؤمن في كل أمره من حراسة كنز إيمانه ويقينه وتعلقه بربه تبارك وتعالى، والدنيا بلا إيمان خراب بلقع، مهما تعطّفت ملذاتها، واشمخرّ ترفها، أما الإيمان فهو السبيل الوحيدُ الموصل لطيب العيش وسكينة الأبد وسعادة الخلود. وتذكّر أن الذنوب جراحات، ورب جرح وقع في مقتل. وإنّ الدنيا بطمعها وشدتها فانية نافدة، أما الذي عند الله من أجرٍ ورضوانٍ وجنة وكذلك من نار وعذاب؛ فهو الباقي الذي لا نفاد له، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق).

تَفنى اللَذاذَةُ مِمَّن نالَ صَفوَتَها   مِنَ الحَرام وَيبقى الإثم وَالعارُ
تُبقي عواقِبُ سُوءٍ في مَغَبَّتِها   لا خَيرَ في لَذة مِن بَعدِها النارُ

الوسطيةُ دينُ المسلمين

الحمد لله وبعد: قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ أي عدولاً خياراً, لأنهم الشهداء على الأمم, بل هم شهداء نوح عليه السلام حينما يكذّبه غدًا قومُه بنفيهم تبليغه رسالة ربه, ورسولهم صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم. فهم موصوفون بالوسط بمعنى الخيار العدول, فكذلك نهجهم بين الغلاة والجفاة, فهم في موضوع الربوبية وسط بين الملاحدة النفاة, وبين الحلولية والاتحادية, وفي الأنبياء بين مكذبيهم ومؤلهيهم, هكذا اضطرد منهجهم في العقيدة والأحكام والتعاملات, والأخلاق والسلوك, فإذا رأيت طرفي نقيض فثَمّ حق في الوسط, يمثّله أهله من صادقي الاتّباع.

قال تقي الدين رحمه الله في رسالته الجامعة المانعة (الواسطية) واصفاً منهج أهل السنة والجماعة: ﴿هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم, فهم الوسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة, وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية, وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم, وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروافض والخوارج﴾.

فردود الأفعال غالبًا لا تتّسم بالانضباط والموضوعية, بل يسوقها الانفعال ويقودها الغضب, فلا تتوقف في رد ما تراه باطلاً عند منطقة الحقّ, بل تتجاوزها إلى الطرف الآخر المخالف, وكلا طرفي قصد الأمور ذميم, وعلى سبيل المثال لما خرجت الوعيدية (الخوارج والمعتزلة) قابلتهم الوعدية (المرجئة), وكذا الجبرية ضد القدرية (النفاة), والتعطيل في مقابل التمثيل, والنصب مقابل الرفض, والغلو

(المعاصر) في التكفير مقابل الإرجاء (المعاصر), والافتئات ضد السلطان مقابل التهالك عليه.. وهكذا.

هذا وإن أول نزاع في الإسلام كان قد وقع في مسألة الوعد والوعيد. وقد اشتمل الوحي بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية, على نصوص الوعد والوعيد, وأهل التوفيق والسعادة هم أهل السنة والجماعة الذين أعملوها جميعاً ولم يكذبوا بشيء منها, (كلٌّ من عند ربنا).

ومن تطبيقاتهم العملية لهذا المنهج السلفي المستقيم لتحقيق الوسطية والخيرية حديث الإمام الزهري رحمه الله؛ فقد حدّث الزهري بحديث الرجل الذي أوصى بنيه بأن يحرقوه بالنار بعد موته ويذرّوا رماده.. الحديث متفق علي صحته, ثم أردفه بحديث المرأة التي دخلت النار في هرة.. الذي رواه مسلم, ثم قال رحمه الله مبيناً سبب روايته للحديثين في مجلس واحد: ﴿لئلا يتكل رجل, ولا ييأس رجل﴾. قال الإمام النووي رحمه الله معلقاً: معناه؛ لمّا ذكر الحديث الأول, وما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء, فضمّ إليه حديث الهرّة الذي فيه من التخويف ضد ذلك؛ ليجتمع الخوف والرجاء.. وهكذا معظم آيات القرآن العزيز يجتمع فيها الخوف والرجاء.

هذا وإن ومن أشد ما جوبهت به الدعوة السلفية رميها بالتكفير بإطلاق, من قبل المرجئة أو ممن تأثر بهم, والمتتبع لتدوينات كثير من منتسبة السنة يفزع لرواج هذه الشبهة عليهم, وهذا من غربة العلم الأصيل والله المستعان, قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله:

ونبرأ من دين الخوارج إذ غلوا   بتكفيرهم بالذنب كل موحد
وظنوه ديناً من سفاهة رأيهم   وتشديدهم في الدين أي تشدد
ومن كل دين خالف الحق والهدى   وليس على نهج النبي محمد

وحينما قيل للشيخ حمد بن ناصر بن معمر رحمه الله: إنكم تكفرون الناس بالمعاصي, قال: ﴿ليس هذا من قولنا بل هذا قول الخوارج الذين يكفرون بالذنوب, ولم نكفر أحداً بعمل المعاصي, بل نكفر من فعل المكفرات كالشرك بالله أن يعبد معه غيره...﴾

فباب التكفير غليظ, كما أن باب الإرجاء سرب مهلك, فالمكفرات محددة في الشرع, ولها ضوابط وشروط وموانع, فلا نتوقف عن تكفير من قام كفره وبلغته الحجة الرسالية, كما لا نتخوض التكفير بلا ضابط ولا علم, وكل ذلك بدلائل الشريعة لا بالهوى والتعصب.

ملاك القول: أن كل عمل فلشيطان منه حظان لا يبالي بأيهما فاز, إما تخذيل عن طاعة فيقع العبد في التقصير, أو تنطع فيها فيركب قلائص الغلو. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومضة: أحيانًا نظن أننا ننصر قضية ما ونعلي شأنها، بينما نحن في الحقيقة نظلمها ونحط منها! وذلك بعرضها بشكل ضعيف مع تسطيح الردود على ما يورد عليها.

٦/ ١٠/ ١٤٣٥

"يا معاذ.. ليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله"

الحمد لله وبعد: فتوحيد رب العالمين, وإله السماوات ولأرضين, هو تحقيق للشهادتين, وهو أعظم التكاليف بإطلاق, كما قيل: أمرٌ هذا شأنه؛ حقيق أن تُثنى عليه الخناصر, ويُعضّ عليه بالنواجذ, ويقبض فيه على الجمر, ولا يؤخذ بأطراف الأنامل, ولا يؤخذ على فضلة, بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يُطلب على الفضلة. ومن لطف الله ورحمته أن جعل حروف لا إله إلا الله كلها لسانية ليس منها حرف شفهي, كي يسهل نطقها على المحتضر, ﴿من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة﴾ رواه أبو داود وعند الشيخين مرفوعاً: ﴿لله أرحم بعباده من هذه بولدها﴾.

والتوحيد هو حقيقة الإسلام الذي جاء به نبينا صلوات الله وسلامه عليه, قال الإمام المجدد في الأصول الثلاثة: ﴿...وهذا دينه, لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلّا حذرها منه، والخير الذي دلها عليه؛ التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه. والشر الذي حذرها منه؛ الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه﴾.

وكلمة التوحيد قامت بها السماوات والأرض, وخُلق من أجلها الخلق, ونصبت من أجلها الموازين, وقام لأجلها سوق الجنة والنار, وأسست بها الملة, وجردت لأجلها سيوف الملة.

قال الشيخ حمد بن عتيق في إبطال التنديد: ﴿توحيد الألوهية أول واجب على المكلف, وقد أفصح القرآن فيه كل الإفصاح, وأبدى فيه وأعاد, وضرب لذلك الأمثال, وفيه وقعت الخصومة بين الرسل وأتباعهم﴾ وبوّب الإمام المجدد في كتاب التوحيد (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب) وفي حاشية الشيخ عبد الرحمن بن قاسم على ذلك الباب: ﴿تحقيق التوحيد قدر زائد

على ماهية التوحيد, وتحقيقه من وجهين؛ واجب ومندوب؛ فالواجب تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي, فالشرك ينافيه بالكلية, والبدع تنافي كماله الواجب, والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه. والمندوب هو تحقيق المقربين الذين تركوا مالا بأس فيه حذراً مما فيه بأس, وحقيقته انجذاب الروح إلى الله فلا يكون في قلبه شيء لغيره﴾.

وتأمل كيف كان التهليل – وهو شعار التوحيد – من أعظم مكفرات الذنوب, قال شيخ الإسلام: ﴿التهليل يمحو أصول الشرك, والاستغفار يمحو فروعه﴾.

والدعوة إلى التوحيد هي مهمة المرسلين وأتباعهم, ومن أجلها حصل الافتراق العظيم بين الرسل وأقوامهم المكذبين. قال عليه الصلاة والسلام: ﴿من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً﴾ رواه مسلم. وقال لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر: ﴿فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم﴾ متفق على صحته.

وشريعة الإسلام شديدة في التوحيد, سمحة في الأحكام, كما جمعهما حديث: ﴿بعثت بالحنيفية السمحة﴾ رواه أحمد. (حنيفية) أي: في العقيدة ففيها التشديد, فقد قال للذي قال: ما شاء الله وشئت: ﴿أجعلتني لله نداً﴾ رواه أحمد والنسائي. (السمحة) أي في التشريع ﴿صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً...﴾ رواه البخاري.

وفي الدعوة إلى التوحيد قال الحسن البصري بعدما قرأ هذه الآية: ﴿هذا حبيب الله, هذا ولي الله, هذا صفوة الله, هذا خيرة الله, هذا أحب أهل الأرض إلى الله, أجاب الله في دعوته, ودعا الناس إلى ما أجاب فيه من دعوته, وعمل صالحاً في إجابته﴾. رواه عبد الرزاق عن معمر.

ولمّا اتهم بعض الناس إمام الدعوة بأنه طالب دنيا أجابهم بكتاب وضح فيه التوحيد وضده, ثم قال: ولو كنتم تعلمون حقيقة ما دعوتكم إليه لكنت أغلى عندكم من آبائكم وأمهاتكم وأبنائكم, ولكنكم قوم لا تعقلون!

وشرطا الدعوة؛ الإخلاص والمتابعة. وصفات الداعي؛ الفقه؛ ليعلّم على بصيرة, والرفق؛ وهو أقرب الطرق لنيل المقصود, والحلم؛ للصبر على الأذى في طريق الأنبياء وأتباع الأنبياء. وشرط التمكين للأمة إنما هو التوحيد ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾

وضده الشرك, وهو أظلم الظلم, وأقبح الذنوب ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾

واعلم أن تهوين شأن الشرك الأكبر في غاية الخطورة, فلو أن رجلاً يقوم الليل, ويصوم النهار, ويحج كل عام, ويعتمر كل شهر, ويتصدق بكل ماله, ويجتهد في أعمال البر, ثم وقع في شرك أكبر؛ كدعاء الموتى, والاستغاثة بهم, ونحو ذلك, وقد قامت عليه الحجة الرسالية, فعمله حابط, وجهده خائب, وسعيه مردود, عياذاً بالله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا﴾ فالشرك الأكبر إذا طرأ على الإيمان فإنّه ينقضه بتمامه, كما الحدث في الطهارة يبطلها.

وليس العمل بنافع مالم يسلم من نواقضه, وأعظمها الردة عن دين الله, لذلك لمّا احتج بعضهم على شيخ الإسلام إبّان دخول التتر الشام بأن التتر مسلمون ويشهدون شهادة التوحيد! رد عليهم الشيخ بأنهم نقضوا ذلك, وقال: إن رأيتموني في ذلك الجانب ـ أي صف التتار ـ وعلى رأسي مصحف منشور فاقتلوني.

فمسألة البراءة من المشركين عظيمة الخطر, جليلة القدر, عزيزة المطلب, وأعظم الناصحين للأمة هم من يغرسون أصول التوحيد وتوابعه فيها, ويهدمون الشرك وفروعه, ويحاربونه بالحجة والبيان والسيف والسنان, فإذا استقام توحيد الأمة انتظمت لها بقية الأمور, وساغ الخلاف والاجتهاد فيما دونه مما يعذر فيه المقلدون. لذلك لما أشار بعض تلاميذ شيخ الإسلام عليه أن يصنّف في الفقه ـ أي العمليّات ـ فيما نقله البزار, أجاب بأن أحكام الفقه أمرها قريب, وإذا قلد المرء أحد الأئمة فيه فلا حرج عليه, ولكني رأيت أصول الدين قد تنازعها الناس.

فعلى الناصح الحازم أن يعتصم بالعروة الوثقى والحبل المتين, وأن يوقن أنه لا يستقل عن توفيق ربه طرفة عين, فلو وكله الله إلى نفسه ضاع وهلك, والتوحيد أشد الأشياء نزاهة وحساسية, فأقل شوب يجرحه ويشوه صفاءه, وهو ضياء ونور في القلب, يشع على النفس طمأنينة وعلى المستقبل أمنًا وفلاحًا.

ومضة: قال واعظ الإسلام عبد الرحمن بن الجوزي: ﴿وحّد زيد بن عمرو وما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم, وكفر ابن أُبيّ وقد صلّى القبلتين! فيا من هو من عسكر الرسول! أيحسن منك كل يوم هزيمة؟!

ومن أراد من العمّال أن ينظر قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه, فيا أقدام الصبر احملي فقد بقي القليل, ويا أيها الراكب قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر﴾.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان عدد ما خلق وذرأ وبرأ، والحمد لله رب العالمين.